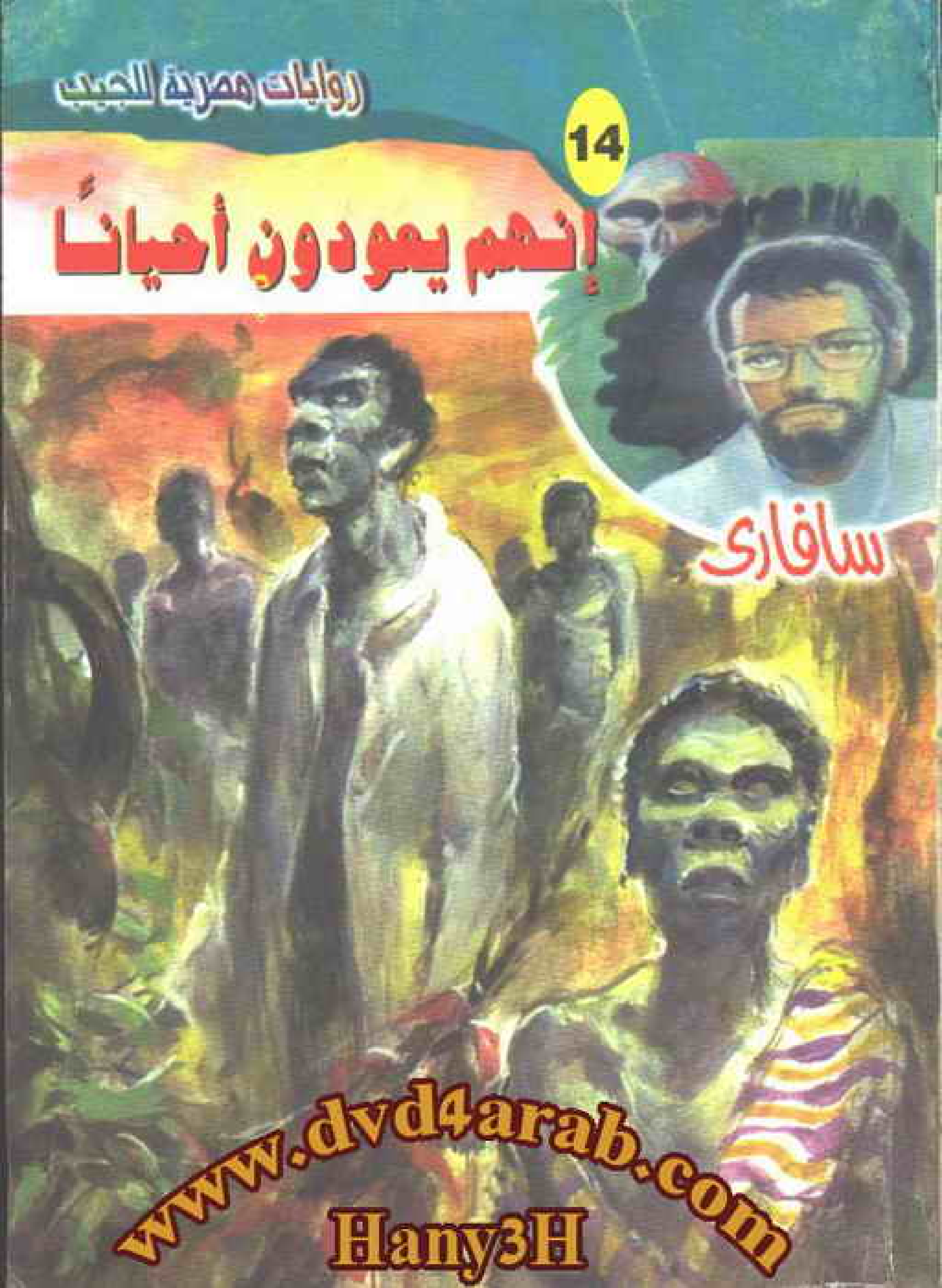


روايات مصرية للجيب
14
إنهم يعودون أحياناً
سافاري

مقـــدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافريّة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًّا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون)..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

١ ـ أشياء كهذه تحدث ..

لا بد أن رجل الأمن الكاميرونى (أوستيفو) قد فكر كثيرًا جدًا فى كنه ما رآه ، قبل أن يهزّ رأسه ويشعل لفافة تبغ ، ويفترض أنه يهلوس ..

إن السهر يعبث بالرءوس كثيرًا جدًا .. والذين يظلون مفتوحى العين حتى شعاع الشمس الأول يمكن أن يروا كل شىء .. إن أشياء كهذه تحدث ..

ولكن دعنا لا نقفز إلى الاستنتاجات .. من العسير على المرء أن يخمن ما دار فى ذهن رجل الأمن العجوز ، الذى تعكس ملامحه طيبة وسذاجة بالغتين .. هو نفسه لا يعرف ما يدور برأسه ..

إنها عادتنا الرذيلة .. عادة وضع الأفكار والخواطر الخاصة بنا على لسان وفى أذهان من يستحيل أن يفكروا فيها .. لقد رأى (أوستيفو) شيئًا غريبًا ، وهذا هو كل شىء ..
أما لماذا لم يبلغ الإدارة وقتها فعلم ذلك عند اللهّ ، لأن (أوستيفو) لم يكن ممن يجيدون التعبير عن أنفسهم ، ولم يكن بالتأكيد يحب أن يقال إنه يخرف لأن هذا يجعل شبح الإحالة للاستيداع يلوح فى الأفق ..

فيما بعد حكى (أوستيفو) القصة ، وصار بوسع من يعرفون التفاصيل أن يفسروا ما رآه فى ضوء جديد ساطع .. إنه لم يكن يهذى ..

إن القصة هى البساطة ذاتها : إنه يجوب ردهات (سافارى) فى السادسة صباحًا ، وهو يتنفس الصعداء لأن ورديته توشك على الانتهاء دون مشاكل .. إنها ليلة هادئة بحق ..

توقف فى الطابق الثانى أمام عنابر الجراحة ، وأشعل لفافة تبغ .. إن قوانين منع التدخين نائمة تمامًا فى هذه الساعة .. على الأقل د . (باركر) نائم إن لم تنم القوانين .. إن كل طاقم (سافارى) يهاب (باركر) بلسانه السليط وصراخه وظهوره فى كل مكان فى كل وقت ، وللأسف لم يمتد هذا الخوف إلى رئيسه طبيب القلب البروفسور (بارتلييه) .. نحن فى مصر نقول ما معناه : سليطة اللسان هى سيدة جاراتها (للأسف أجد التعبير العامى خشنًا بعض الشىء) ، وهو تعبير عبقرى يدلّ على السيطرة المطلقة للصوت العالى ، إلى درجة إثارة الاحترام فى النفوس ..

أطلق سحابة كثيفة من الدخان ، وتأمل الأبواب المغلقة .. لا يوجد شىء مقلق أو مريب .. لحسن الحظ ..

كلا .. يوجد شىء ..

فى نهاية الممر .. حيث يخفت الضوء وينحنى الممر إلى اليمين نحو عنابر العظام .. يرى هذا الظلّ فارع القامة الذى يمشى بتؤدة ، فى تلك المنطقة من طيف الضوء التى هى ظلام كلها ، أو منطقة الظلام التى هى ضوء ..

شىء ما فى مشية الرجل جعله يتردد فى اللحاق به .

لم يكن متسللاً كاللصوص ، ولم يكن واثقًا كالممرضين والأطباء ، ولم يكن متهاقتًا كالمرضى ..

كان يهيم فى الردهة .. و (يهيم) هى أدق لفظة ممكنة .. لا إحساس بالخطأ ولا أى نوع جلىّ من المجهود العضلى ..

وفى اللحظة التالية توارى عند نهاية الممر ..

هرع (أوستيفو) - معدوم اللياقة - وهو يلهث ليلحق بالشبح ، وتحسس المسدس المعلق إلى خصره ، وكل رجال الأمن فى (سافارى) صاروا مسلحين بالمسدسات بعد قصة الفصيلة إياها التى احتلت الوحدة ..

وصل إلى النقطة التى توارى عندها الشبح ، فلم يجده .. طبعًا .. كل الأشباح تفعل هذا من فجر التاريخ .. لا جديد تحت الشمس ..

وكان إلى يسار (أوستيفو) باب موصد ، يقود إلى ما يشبه غرفة الجبس .. هذا هو الاحتمال الوحيد الذى يسمح لشخص بأن يتوارى بهذه السرعة ..

فتحه وتأمل المكان على ضوء النهار الوليد الأبيض المتسلل من نافذة هناك .. لم يكن هناك أحد .. الحجرة عارية تمامًا . عارية من الأشخاص طبعًا ..

ومن جديد عاد يرمق الممر ، ثم قرّر أنه يهلوس .. لم لا ؟

إن أشياء كهذه تحدث ..

★ ★ ★

من جديد أعود لكم ..

(علاء عبد العظيم) الطبيب المصرى الشابّ .. المصرى الوحيد فى وحدة (سافارى) فى (أنجا وانديرى) ..

كنا قد انتهينا - كما قلت لكم - من موضوع ثورة الوحوش المفاجئة ، ومن مشكلة صغيرة تتعلق بذبابة (تسى تسى) ، وقد انتهت تمامًا لكنى أحتفظ لنفسى بحق عقاب المتسبب فى الأمر .. ما زلت أخطط على كل حال .. إن المقلب الذى أعدّه - فى وله شعرى - لجدير بأن

تحكيه الأجيال القادمة ، باعتباره انتقامًا فريدًا من نوعه .. شيئًا كعقاب (سيزيف) أو كرم (حاتم الطائى) أو خبث (جحا) ..

ألم تعرفوا بعد ؟

لقد عادت (برنادت) أخيرًا من (ياوندى) .. لقد انتهى انتدابها فى مؤسسة (باستير) هناك ، ومع عودتها عاد طوفان من الأحلام والآلام والنشوة والقلق والغيرة .. إن حياتى من دونها نهر راكد مريح فى الواقع .. إن الأنهار مملة لكنها على الأقل لا تحرمك النوم ..

سألتها عن الأحوال فى (ياوندى) ، فكوَّرت أنفها بالـ (تشنيكة) المعتادة ، وقالت :

ـ « إنها مدينة .. مدينة كالتى تراها فى (كندا) وفى (لوس أنجيليس) وفى (لانكشير) ..

لا شىء يدلك على أن هذه إفريقيا الاستوائية إلا وجوه المارة فى الشوارع .. »

ـ « لا بد أن هذا راق لك .. »

ـ « فى البداية .. نعم .. الحياة فى مدينة عصرية بها شوارع مرصوفة وسيارات وإشارات مرور ، ومتاجر تتسوق منها ليلاً .. ثم بعد قليل تدرك أن لديك القليل جدًا كى تفعله .. إن الآلة هناك تدور بك أو بدونك .. أما هنا فأنت ترس مهم جدًا .. الحق أقول لك إننى لا أستطيع الحياة دون أطفال سود بائسين ، وأمهات أكثر بؤسًا .. »

ـ « وللناس فيما يعشقون .. »

وها هى ذى تشمر المعطف الأبيض إلى الساعدين ، وتنطلق إلى عيادة الأطفال لتبدأ

يومًا جديدًا من النزلات المعوية والكساح وأمراض التغذية ..

★ ★ ★

وأعود أنا إلى قسم الأورام الذى أعمل فيه هذا الأسبوع ..

تعرفون أننى من مجاذيب الجراحة المفتونين بها .. يقولون إننى جراح بالفطرة ، وإن طبيعتى المقتحمة العدوانية تتسق تمامًا مع هذا الفرع من العلم .. أولاً : لا أشعر بأننى مقتحم عدوانى كما يقولون .. هى مجرد سمعة اكتسبتها من كل المشاجرات التى تورطت فيها عن غير قصد .. ثانيًا : لو كنت أملك موهبة جراحية ما ؛ فهؤلاء القوم يتمتعون بفراسة غير عادية . لم أعرف أن فن (القيافة والعيافة) الذى اختص به العرب

يسرى هنا .. الحقيقة أننى لم أر فى نفسى قط بذرة جراح جيد .. وقد قارفت أخطاء لا بأس بها كانت لتغدو قاتلة لو لم ينقذنى الزملاء واسعو الخبرة ..

لكنى سأكون جراحًا .. جراحًا فريدًا من نوعه ..

اليوم أنا فى قسم الأورام .. لكنى لن أمارس الجراحة لأن هذه حالات متقدمة تجاوزت ما يسمونه (المرحلة الرابعة) فى أى تقسيم أورام ..

حالات تتلقى العلاج الإشعاعى أو الكيماوى أو التخفيفى ، ومهمتهم هنا هى جعل ساعاتهم الأخيرة محتملة إنسانية الألم ..

طبعًا قسم كئيب ، ومهمة أكثر كآبة لا تختلف كثيرًا عن مهنة الحانوتى إلا فى كون هؤلاء المرضى ما زالوا يتنفسون ..

ها هنا يجول الموت فى ثقة مكشرًا عن أنيابه ، يقف عند رأس كل فراش ويضحك ، فلا نجد الوقت الكافى لتدوير الفراش ، حتى لو زودناه بمحرك كالذى يزودون به معارض الأثاث ..

كان الأستاذ (لوجاس) مريضًا من الأهالى فى الخمسين من عمره ، وكان سرطان الرئة قد لعب معه لعبته القاسية الأخيرة ..

رجل مهذب رقيق وديع جدًا ، يعتقد أنه ليس من حقه أى شىء إلا ما نمنحه إياه تصدقًا .. وكان لا يكف عن توجيه عبارات الشكر حتى لمن يرتب له الفراش ، أو يأخذ حرارته ..

كان يعرف أنه ينتهى ، ويفهم صور الأشعة المخيفة المعلقة جوار فراشه ، وكان يتعاطى جرعات عالية من المورفين والعلاج الإشعاعى

والكيميائى ، حتى احترق جلده وسقط شعره وراح يقىء أكثر الوقت ..

هذا الرجل قد صار صديقى .. نعم صار صديقى الحميم .. هذا هو الشىء الوحيد الذى أملك أن أمنحه إياه فى معاناته .. إننى - فى حالته - شبيه بأطباء القرن الثامن عشر الذين كانوا يزورون مريض التيفود فيفحصونه ، ويوصون بالمزيد من الفصد ومزيج الراوند ، ثم يتعشون ويطلبون من الخادم أن يجلب لهم عربة .. لم يكن لديهم ما يقدمونه للمريض سوى أن يتعشوا عنده .. أنا مثلهم بالضبط وأسوأ .. لهذا أجلس جوار فراشه وأحدثه عن الشعر الإفريقى ، وعن إيقاعات لغة (خوى خوى) الموسيقية ..

إن أسوأ ما يفعله طبيب الأورام أن يجعل المرضى أصدقاءه ، وأن يفقد تجرده العلمى ، لأن هذا يجعل من حياته سلسلة من فواجع الثكل .. لكن ما باليد حيلة .. ليست نفوسنا محكومة بضغطة على زرَ ..

وفى هذا الصباح قال لى وهو ينشق الأكسجين من قناع بجواره :

ـ « هل أنت متزوج ؟ »

قمت بضبط معدل سريان الغاز ، وقلت :

ـ « لا .. لكنى سأفعل بالتأكيد .. »

ـ « مصرية ؟ »

ـ « فى الغالب .. لا .. كندية .. أو هذا ما أعتقده .. »

قال بالصوت المكتوم من وراء القناع :



وفى هذا الصباح قال لى وهو ينشق الأكسچين من قناع بجواره :
ـ هل أنت متزوج ؟ ..

ـ « لا تتزوج إلا ابنة وطنك .. صدقنى .. إن اختلاف الثقافات أمر مريع .. أنت لا تملك عقل الغربيين وإن تكلمت بلغتهم .. »

هذا صحيح .. هناك فارق هائل بين من يسمع (أم كلثوم) ومن يسمع (نات كنج كول) ، وبين من يفطر بالفول والطعمية ومن يفطر بالخبز المقدد والقهوة .. ولا أقصد هنا أيهما أفضل من الآخر .. أقصد أن الثقافتين تختلفان بشدة .. لكن (برنادت) تختلف بشدة كذلك عن الغربيين ، ولولا ذلك ما كنت قد ..

قلت له وأنا أبعده عن الموضوع :

ـ « سأفكر فى هذا .. الآن حاول أن تنام .. »

هنا جاء الدكتور (يورجين بليتز) وحيّانا .. فنهضت احترامًا .. راح يتفقد لوحة العلامات

الحيوية المعلقة جوار الفراش .. لم تكن مريحة طبعًا .. ثم هزّ رأسه وابتسم .. ابتسامة (بليتز) تعنى دائمًا أن الأمور لم تكن أسوأ من هذا ..

(يورجين بليتز) .. مختص علاج الأورام الألمانى .. وجه جديد وافد على (سافارى) منذ عام .. يبدو أنه كان يعمل فى (الكاميرون) منذ فترة طويلة ، وربما فى (أنجاوانديرى) كذلك ..

هل أصفه لكم ؟ لم لا ؟ إنه ذو طابع كلاسى فى كل شىء .. فى ثيابه . فى كلماته .. فى شعره اللامع الغارق فى البريانتين والذى يفرقه من منتصف رأسه .. فى شاربه الرفيع المنمق كخطٍ باللون الأسود على شفته العليا .. إنه إنسان مهذب بارد قليلاً ، وبالطبع يتكلم فرنسية شنيعة تجعل فرنسيتى أنا تبدو كأننى (فولتير)

مثلاً .. لكن لغة التفاهم الرسمية فى (سافارى) هى الفرنسية ، ولا مفر منها ..

قال لى همسًا ونحن نبتعد عن الفراش :

ـ « الأمور تسوء بانتظام .. أعتقد أن الأمر لن يتأخر .. ربما غدًا أو بعد غد على أحسن التقديرات .. »

هززت رأسى فى أسى .. لا يجب أن أكون (ابن سينا) كى أعرف هذا ..

المشكلة فى حالة (لوجاس) أن كل التحاليل والفحوص النسيجية لم تستطع تحديد نوع السرطان الذى يفترس رئتى الرجل .. لم تكن حالته تسمح بجراحة ، لذا قاموا بمختلف أنواع الحيل التى يعرفها أطباء الصدر جيدًا .. أخذوا عينته بإبرة عبر الضلوع .. بحثوا فى دمه .. سكبوا محلولاً فى رئتيه وشفطوه ليحللوه ..

أدخلوا منظار الشعب من حنجرته .. لكن لا شىء .. صورة الأشعة تقول إن هذا سرطان متقدم ، ولكن ما هو ؟ ما نوعه ؟

قال (يورجين) وهو يتجه إلى فراش آخر ..

ـ « عندما ينتهى الأمر ؛ لن تكون هناك أسرار .. سنرى بأعيننا ما يحدث داخله الآن ! »

كان يتكلم عن التشريح طبعًا ، وقد اقشعررت للفكرة .. لحماسه المريض كى يعرف .. لكنه محق دون شك .. عن طريق التشريح لن تكون هناك فرصة للفشل فى تشخيص الحالات القادمة ..

وانتهيت من هذا العنبر الكئيب ، ففررت إلى الحرية .. إلى الشمس ..

فى حديقة (سافارى) المحيطة بالبناية الشبيهة بحرف L ، كان (بسّام) واقفًا يثرثر مع اثنين من رجالِ الأمن ، وكان اليوم يلفظ أنفاسه الأخيرة معلنًا الخلاص لسعداء الحظ الذين ليسوا نوبتجيين ..

دنوت منه ، وحييته وحييت الرجلين ..

قال (بسام) بالعربية الفصحى :

ـ « تعال اسمع ما يقوله هذان .. أنت مولع بهذه الأمور .. »

ـ « أية أمور ؟ »

ـ « الأشخاص الذين يهيمون فى ردهات الوحدة فى ساعات الليل .. ! »

نظرت للحارسين فلم أجد أنهما قلقان .. كانا يستمتعان بوقتهما حقًا ، وأدركت أنهم يأخذون

الأمر على محمل الدعابة .. سألت (بسام) بالعربية :

ـ « وماذا فى ذلك ؟ إنها مشكلة أمن لا أكثر ، ولو عرف (باركر) بالأمر لـ .. »

ـ « لن يخبره أحد .. لكننى رأيت أنا نفسى واحدًا من هؤلاء .. »

ـ « جميل .. وكيف يبدو ؟ »

ـ « لا أدرى .. من المستحيل أن ترى وجوههم .. أنت تعرف هؤلاء الذين يمشون فى الظلال .. الذين لا يستديرون للوراء أبدًا .. الذين .. »

وصمت هنيهة ثم أضاف :

ـ « .. الذين يختفون فجأة عند أول منعطف .. ويعودون من حيث جاءوا ! .. ! »

★ ★ ★

٢ ـ عن الماشين ليلاً ..

قال أكبر الحارسين ، وهو عجوز كاميرونى اسمه (أوستيفو) لو لم تخنى الذاكرة :

ـ « إن هذه الأمور تحدث يا دكتور .. لقد رأينا هؤلاء كثيرًا .. لم يعد يمر أسبوع دون أن نلمح أحدهم .. »

قلت له فى عدم فهم ولا أقول (غباء) :

ـ « لا أعتقد أن اللحاق بأحدهم واستجوابه عسير إلى هذا الحدّ .. »

تبادل حديثًا بالبانتويد مع صديقه ، والتمعت أسنانهم البيضاء وهم يضحكون ، ثم قال لى ولـ (بسّام) :

ـ « مخيفون جدًا .. عسير أن تجرؤ .. ثم إنهم يتوارون فى الظلال قبل أن تلحق بهم فى الغالب .. »

قال (بسّام) بالعربية ، وهو يلكمنى فى كفى :

ـ « أنت لن تجرؤ يا صبى .. صدقنى لن تجرؤ .. إن لهم ذلك الطابع المخيف الذى يذكرك بالأشباح أو الـ .. »

ـ « الزومبى .. هل تقصد هذا ؟ »

والحقيقة هى أن أساطير الزومبى جاءت من هذه البقعة بالذات .. ديانة الودونية أو (الفودو) التى سادت غرب إفريقيا بالكامل ، ثم جاء الرجل الأبيض بسفنه .. كان أول البيض برتغاليًا ، وقد حمل معه عند العودة تذكارًا هو مجموعة من سود (غانا) .. وبعد أعوام

اكتشف الأمريكان عام ١٦١٩ هذه الآلة الصناعية السوداء فائقة القدرة .. اشتروا عشرين زنجيًا من سفينة هولندية وجربوهم فى المزارع ، فكانت النتيجة مبهرة .. وسرعان ما نشطت تجارة العبيد ، وانتقل الملايين إلى أمريكا ليعيشوا هناك ، حاملين معهم أكثر معتقداتهم ، التى كانوا يمارسونها فى غابات إفريقيا ..

وفى جزر الكاريبى كان هؤلاء الأفارقة يعتنقون ديانة (الفودو) التى مزجوها بالمسيحية فى خليط غريب .. وكان (الزومبى) من الأحجار المهمة فى هذه العقيدة .. إن (الزومبى) جاء من غرب إفريقيا ليعيش فى الكاريبى ..

حقًا لا أرى غرابة فى أن تسود هذه الخرافة هنا .. الكلام عن أشخاص هائمين لهم طباع

الزومبى العجيبة كما نراها فى أفلام الرعب ..

سألت (أوستيفو) :

ـ « إنهم لا يؤذون .. أعنى أنهم لا يفعلون أكثر من الظهور .. »

اتسعت ابتسامة العجوز أكثر وقال :

ـ « نعم يا دكتور .. مخيفون .. فقط .. »

ـ « هذه ليست مشكلة كبرى على كل حال .. إننى أمقت الصراصير وأراها مخيفة ، لكنها لا تؤذى .. فقط هى علامة على عدم النظافة .. إن وحدة (سافارى) متسخة .. متسخة بأشباح تجول ولا تنظر للوراء .. »

قال (بسام) وهو مستمتع حقًا بكل هذا :

ـ « المشكلة هى أن (باركر) نفسه أخطر من كل الأشباح فى العالم ، ولو عرف لكان

حسابه مع رجال الأمن عسيرًا .. إن الموضوع لم يخرج عن كلمات هامسة يتبادلونها .. »

كنت أفكر .. إن كل مستشفى فى العالم له أشباحه الخاصة ، وقديمًا حين كنت طبيب امتياز فى مستشفى (....) العامّ ؛ كانت الممرضات يتحدثن فى رهبة عن القطط السوداء التى تجول فى الردهات ليلاً ، وتعوى بتلك الطريقة الرهيبة التى كن يسمينها (تعويص) .. بالطبع كن يرين أنها أشباح المرضى الذين ماتوا فى هذا المستشفى .. وكان عدد القطط كبيرًا - لا تنس أنه مستشفى عامّ - لهذا كنت أتساءل عن مدى كفاءة العلاج فى هذا المكان ، لو كان كلام الممرضات صحيحًا ..

وفى ليلة لن أنساها سهرت جوار مريض يحتضر .. كنت متحمسًا وحسبت أننى قادر على

مراوغة الموت بشكل ما .. وفى الرابعة صباحًا بدا لى أن الأمور تتحسن ، فدخلت غرفة الطبيب النوبتجى وبدأت أشرب بعض الشاى .. لا أدرى كيف ولا متى غبت عن الوجود .. هدّنى التعب فسقط رأسى على صدرى ..

ثم صحوت .. صحوت لأن تأثيرًا نفسيًا خارقًا راح يثقب رأسى ، ليجد طريقه إلى ثنايا مخى صائحًا : انهض ! .. ! انهض !

فتحت عينى لأجد تلك القطة السوداء الواقفة على قدميها الخلفيتين ، كأنها تمثال فرعونى مقدس ، وفى عينيها يتوهج الزمرد الفوسفورى مخترقًا حجاب جفنىّ .. نظرة صامتة رهيبة شريرة دامت ثلاث ثوان ، بعدها ابتعدت عن فتحة الباب .. ولم أرها ثابتة ..

وهرعت إلى فراش مريضى ، فوجدته قد رحل .. وكنت قد تركته منذ خمس دقائق ..

لا أحاول التلميح بهذه القصة إلى شىء ما ، ولا أحاول استخلاص استنتاج منها ، ولكن هذا ما حدث بالضبط ..

وكما توقعت أعادنى (أوستيفو) إلى عالم الحاضر قائلاً :

ـ « إنهم المرضى الذين ماتوا هنا .. »

وقال زميله فى حماس :

ـ « نعم .. نعم .. كان هناك هذان الرجلان من قرى (الباميليك) .. لن أنسى مظهرهما ما حييت .. لقد ماتا منذ شهرين ، وقد لمحتهما منذ أسبوع ! »

كما قلت لكم : كنت أعرف أن هذا كله سيثأر ..

قلت لـ (بسّام) وأنا أشدّه من ذراعه لنرحل :

ـ « هل انتهيت من عملك ؟ لماذا لا نذهب إلى غرفتى ؟ سأعدّ لك بعض الشاى .. »

بدا له العرض مغريًا ، فلوّح بذراعه للرجلين وابتعد معى ..

قلت له ونحن ندخل الجناح الآخر حيث يقيم الأطباء :

ـ « ما هذا الهراء ؟ »

ـ « أى هراء ؟ هذه قصص خارقة للعادة تحطم الملل من حولنا .. »

وفى حجرتى أعددت بعض الشاى .. كان جائعًا فأعددت له شطيرة من الجبن ، وغمستها ببعض زيت الزيتون لأنه ـ ككل تونسى ـ لا يفهم أن يوجد طعام دون زيت الزيتون .. ولولا المبالغة لشربه بدلاً من الماء ..

سألنى :

ـ « هل من أخبار عن ذلك الصهيونى وقصة الذباب إياها ؟ »

ـ « لم أقرر بعد ما سأفعله .. لكنى مسرور لأنه خائف .. دعه يرتجف .. دعه يفتش عن الثعابين فى أحذيته كل صباح ، ويتحسس قفاه بحثًا عن العناكب السامة .. إن هذا أجمل من أى شىء أنوى عمله .. »

لاك الطعام بين شدقية ، وقال :

ـ « لا بأس .. لكن كن حذرًا .. لربما دفعه الخوف إلى البدء .. »

ـ « لا أظن .. إنه يحمل عقدة (الماسادا) ككل اليهود فى الواقع .. وهو هنا فى (سافارى) يعرف أنه الإسرائيلى الوحيد .. وكل إسرائيلى

وحيد مذعور خائف دائمًا ، تضنيه وساوس الحصار .. »

فكر قليلاً ثم غمغم :

ـ « معقول .. »

★ ★ ★

وفى الصباح دخلت عنبر الأورام لأجد المفاجأة القاسية تنتظرنى : الفراش الخالى .. الفراش الخالى حيث كان يرقد (لوجاس) أمس ..

شعرت برجفة تسرى فى عمودى الفقرى ، وتذكرت وجهه أمس وهو ينصحنى بالزواج من مصرية .. بهذه السرعة إذن ؟

شعرت بيد على كتفى ، فنظرت للوراء ..

كان الألمانى (بليتز) يمسك بلوح الكتابة فى يده ، ويقول لى فى رفق :

- « أفهم ما تشعر به .. لقد كان صديقك .. أليس كذلك ؟ »

- « متى ؟ »

- « فى الثالثة صباحًا .. لقد كنا نتوقع هذا .. أليس كذلك ؟ »

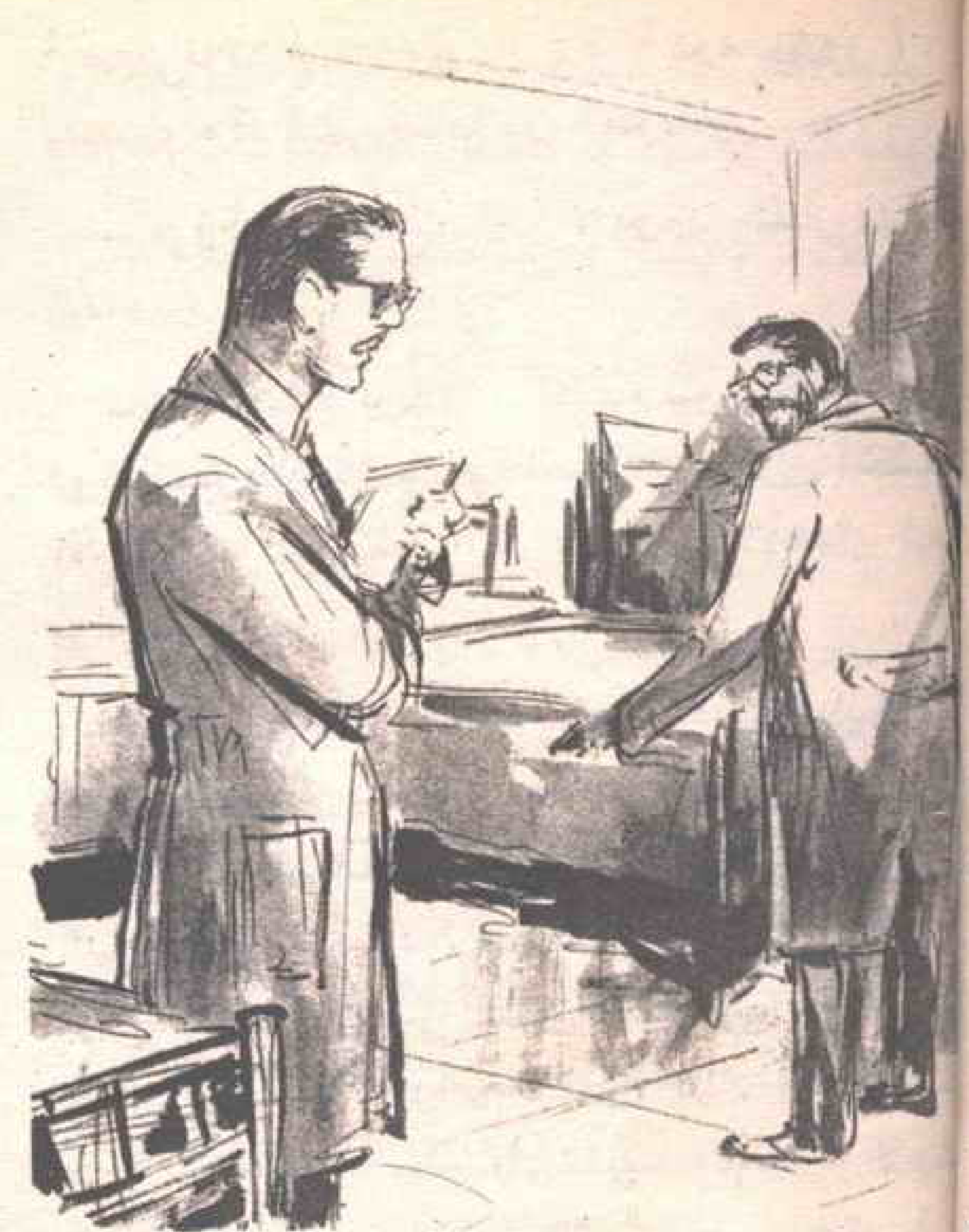
- « لا أدرى .. لقد تم كل شىء بسرعة .. »

ابتسم ابتسامته الأرستقراطية الباردة ، وقال :

- « فى حالته تكون السرعة رحمة بالغة من السماء .. لقد انخفض ضغط دمه سريعًا وبدأ يغيب عن الوعى .. فشلت كل محاولاتى ، وأعتقد أن نزفًا رئويًا قد حدث لأنه بدأ يسعل دمًا .. »

ثم تنهد وداعب شاربه الرفيع وقال :

- « يومًا ما سيعرف العلم كيف يمنع المزيد من هذه الأحزان .. سيتناول المريض بالسرطان



كان الألمانى (بليتز) يمسك بلوح الكتابة فى يده ، ويقول لى فى رفق :
-«أفهم ما تشعر به .. لقد كان صديقك ..

قرصين من (أونكو لايسين) أو (كارسيكيور) ، ويصحو وقد شفى تمامًا من السرطان .. »

ـ « (أونكولايسـ ..) .. لا يوجد عقار بهذا الاسم .. »

ـ « طبعًا لا يوجد .. لكنهم يوم يخترعون دواء للسرطان لن يجدوا اسمًا آخر .. إن أعظم الاكتشافات لم يُكتشف بعد .. وأجمل الأطفال لم يُولد بعد .. »

كانت هذه هى السمة المميزة لـ (بليتز) إيمانه المطلق بالغد وبالتقدم العلمى ، وهو ما يشعرنى أحيانًا بالسذاجة .. إن العلم برغم كل شىء بطىء محدود ، ووثباته ما زالت أقل مما توقع المفكرون فى القرن الماضى .. ولو أن (هـ . ج . ويلز) رأى ما نحن فيه بعد نصف قرن من مماته ، لأصابته خيبة الأمل .. لا بد أنه كان يحسب إنسان التسعينات سيعيش فى

مدينة فضائية خالية من المرض والفقر والألم .. ربما كان يحسبه قد تخلص من الموت كذلك ..

قلت لـ (بليتز) وأنا أتناسى ما أنا فيه ..

ـ « هل حضرت التشريح ؟ »

تقلص وجهه اشمئزازًا ، وقال :

ـ « بالطبع لا .. ما دام ذلك اليهودى الإنجليزى يسيطر على المشرحة ، فأنا لا أرغب لحظة فى الذهاب هناك .. »

وهذه نقطة أخرى تميز (بليتز) .. إنه لا يطيق اليهود ولا الإنجليز ولا الفرنسيين .. ربما أقول إن هذا يقرّب بيننا نوعًا ، لكنى بدورى لا أكره اليهود إلى هذا الحدّ .. أكرههم فقط حين يصيرون صهاينة .. وبالتالى كان (بليتز) أكثر حماسًا منى فى هذا الصدد ..

أما عن مقته للإنجليز والفرنسيين فأمر لا أفهمه .. يبدو أن النزعة العرقية (الآرية) لم تفارق الألمان بعد ؛ بعد نصف قرن من وفاة (هتلر) ..

قلت له وأنا أتجه لأول فراش فى العنبر :

ـ « سأمر على البروفسور (جيديون) بعد انتهائى من العمل هنا .. »

ـ « كما تريد .. »

وبدأت أفحص أول مريض ..

لكن عقلى كان هناك .. كان مع وجه إفريقى مهذب خجول ، يضع القناع على وجهه وينصحنى بالزواج من مصرية .. وجه كان رجلاً أمس ، واليوم صار جثة باردة على منضدة التشريح أمام عينى (جيديون) الشبيهتين بعينى صقر ..

* * *

١ ـ أشياء كهذه تحدث ..

(معذرة على ضيق أفقى فى اختيار عناوين الفصول)

المشرحة هى المشرحة فى كل مكان بالعالم ..

لن تجد أبدًا أضواء باهرة وموسيقا حالمة وعذارى فاتنات يرقصن على طول الممر المؤدى لها .. دائمًا ذلك القبو المظلم الرطب برائحة (الفورمالدهايد) القوية .. وما كانت مشرحة (سافارى) لتختلف كثيرًا ..

كانت أسئلة كثيرة تدور بذهنى : ما نوع سرطان الرئة الذى فتك بـ (لوجاس) اليوم ، ولماذا فشلت أساليب التشخيص الحديثة فى العثور على خلاياه ؟ نحن الآن فى معقل علم

الأمراض (الباثولوجى) حيث الطبيب الوحيد الذى يعرف كل شىء ويفعل كل شىء بعد فوات الأوان .. كنا قد قلنا سابقًا إن الطبيب الباطنى يعرف كل شىء ولا يفعل شيئًا .. والجراح لا يعرف شيئًا ويفعل كل شىء .

إن (جيديون) لقادر على أن يفتح صدر المريض ، ويخرج رئته ويتأملها ، ويفحصها تحت المجهر .. الحلم الذى تمناه كل طبيب .. فقط مع مريض حىّ .. !

وكان الأستاذ الإنجليزى جالسًا إلى مكتبه ، وجواره مساعده الكورى .. وقد راحا يطالعان بعض الكتب فى شغف .. يختلف (جيديون) عن باقى أطباء (سافارى) فى أنه قلما يترك هذا المكان الكئيب .. لقد تحوّل إلى جثة حية هو الآخر ، وصار عسيرًا أن أتخيله فى ضوء الشمس ..

تنحنحت فنظر لى بعينيه الزرقاوين الباردتين وحكّ أنفه المعقوف متسائلاً .. هذا الرجل معجب بى .. أعرف هذا .. معجب بحبى للتعلم ونهمى للمعرفة طبعًا وليس بجمال منظرى .. لكنه يدارى هذا وراء كبرياء أرستقراطى يصل إلى برودة الحاجز الثلجى ..

ـ « صباح الخير يا سيدى .. كنت أتساءل عن تشريح مريض سرطان الرئة إياه .. »

نظر لى بلا تعبير ، فقلت .

ـ « المريض الذى مات اليوم صباحًا .. كاميرونى يُدعى (ف . لوجاس) .. »

ـ « لم تصل أية جثث اليوم .. »

ـ « معذرة يا سيدى .. أنا متأكد من كلامى .. »

نظر لمساعده الكورى ، فضحك هذا كاشفاً عن أسنانه ، وهذا نوع من الابتسام بالنسبة لسكان جنوب شرق آسيا وقال :

ـ « لا جثث يا دكتور (عبد العظيم) .. ثمة خطأ ما .. »

نظرت لهما فى غباء .. طبعًا لم تصل بى الحماسة إلى درجة أن أفتش المشرحة بنفسى ، أو أطلب منهما إفراغ الجيوب على المكتب ..

لهذا شكرتهما وانصرفت ..

خطأ بيروقراطى ما .. إن أشياء كهذه تحدث ..

* * *

ولكن الطبيب الألمانى لم يصدّق حرفًا مما قلت ، وقال :

ـ « هذا ما قلته لك .. إن اليهودى يبخل عليك بعلمه ، ولربما هو كسول إلى حدّ أنه ينكر الأمر كى لا يفارق ردفاه المقعد .. »

ـ « غريبا هذا حقًا .. »

لقد توفى (لوجاس) فى الثالثة صباحًا ، ولم يأت أهله لاستلامه .. »

ـ « هذا طبيعى لأنه بلا أهل .. ورقة انتزعت من شجرة كما نقول فى مصر .. »

قال فى سأم :

ـ « الجثة فى المشرحة ، وإلا فلا أحد يعلم أين هى .. »

* * *

لكن الأمر ليس بهذه البساطة ، وقد بدأت فعلاً أشعر بدهشة بالغة .. هذه جثة طازجة ..

جثته لم تبرد بعد .. فى جهاز إدارى محكم مثل (سافارى) لا يستطيع الماء أن يتسرب من ثقوبه .. فكيف لا يعرف أحد أين هى ؟

سألت فى إدارة الحاسب الآلى حيث تصل كل معلومات الدخول والخروج ، فلم أجد الاسم قط ضمن المتوفين .. فتشت فى تذاكر قسم الأورام ، فوجدت تذكرة (لوجاس) والسطور الأخيرة فيها تحكى النهاية المأساوية للمسرحية التى دارت فى الساعات الأولى من صباح اليوم ..

سألت العمال المسئولين عن نقل الجثث إلى المشرحة ..

وفى الثامنة مساءً كنت فى مكتب البروفسور (بارتيلييه) .. المدير ..

★ ★ ★

كان البروفسور الفرنسى يلتهم عشاءه فى مكتبه كالعادة ، وبالطبع لم يقل لى عبارة من نوع (مدّ يدك) أو (خُذ لقمة معى) كما نفعل نحن كى لا ينزل الطعام فى بطننا بالسمّ ..

قال لى فى انهماك وهو يوقع بعض الأوراق بيده الحرّة :

ـ « مساء الخير يا (علاء) .. ما هى أخبار مشاغباتك الأخيرة ؟ »

ابتسمت فى شىء من حياء ، وقلت :

ـ « لم أقتل أحدًا منذ أسبوع ، لو كان هذا ما تعنيه .. »

ـ « عظيم لقد بدأت تشفى .. »

ثم قضم قضمة كبيرة من الشطيرة ، وعاد يسأل :

- « إذن ما هى المشكلة ؟ »

- « مشكلة الجثث التى لا تصل إلى المشرحة .. »

وفى الدقائق التالية حكيت له قصة (لاجوس) بالتفصيل ، فبدأ يهتم بالأمر .. وضع الشطيرة فى الطبق ، وراح يجرى بعض المكالمات .. واضح أننى صادق ، وأن هناك خللاً ما فى الأمر كله ..

وبعد عشرين دقيقة وصل (بليتز) إلى المكتب ..

رمقنى بنظرة نارية أحرجتنى كثيرًا .. لا أحب أن ألعب دور الواشى القذر أو الصائد فى الماء العكر أو .. خاصة وهو لا يطيق الفرنسيين ومنهم (بارتلبيه) طبعًا ..

سأله (بارتلبيه) فى ضيق عن الجثة ، فقال :

- « مسئوليتى تنتهى عن الجثة لحظة أن تصير كذلك .. هناك مسئولون عن نقلها إلى المشرحة وما إلى ذلك .. »

- « هل تعرف العمال الذين أخذوها ؟ »

- « إفريقيان يلبسان ثياب الممرضين لو كان هذا يسَهل الأمور .. كل السود يتشابهون فى نظرى ، ولن أميز أحدهم من الآخرين و لو بعد مائة عام .. »

ضايقنى كلامه بحق .. صحيح أن السود والآسيويين يتشابهون حتى بالنسبة لنا معشر العرب ؛ لكن كلام الرجل كان لا يخلو من اشمئزاز ساخر .. كأنه يقول : أنا لن أميز بين (شمبانزى) وآخر ولو بعد مائة عام ..

إن النازية لم تمت بعد فى نفوس الألمان ، وأعتقد أنها ستعود فى أول لحظة يغفل العالم عنها ..

سمح لـه (بارتلييه) بـالانصراف ، وطلـب استدعاء الممرضين الذين كانوا فـى هـذا القسـم أمس فى ساعات النهار الأولى ..

جـاء إفريقيـان تعسـان مذعوران إلـى مكتـب المدير ، وكان كلامهما واضحًا لا يحتمل الخلاف :

ـ « لم يثتدعنا أحد لنقل جثث يا ثيدى .. »

وبعد تحويل الثاء إلى سين أمكننى فهم أنهما ينكران ..

ـ « هل كان هناك أحد غيركما فى هذا القسم ؟ »

ـ « لا يا ثيدى .. ولكن .. »

ثم تبادلا النظرات ، وكأنهما قد تذكرا ، وقـال أولهما :

ـ « هناك رجـلا أمـن يـا ثيدى .. هـؤلاء قد يثاعدون فى نقل الجثث .. »

ـ « ائتيا بهما ! »

سأعفيك من بقيـة الاستجوابات .. فلو كنت مملاً ساديًا قاسى القلب ، لوجدت أيمـا لـذة فـى أن أسـوّد عشر صفحـات بتفـاصيل التحقيـق ، لكنى أرق قلبًا من ذلك .. ولذا أقول إن الجميع ينكر أية علاقة له بالمرحوم ..

وفى النهاية صرف (بارتلييه) الجميع وقال :

ـ « الجميع يكذب .. أو هم صادقون و (بليتز) يكذب .. »

وتـأمل شـطيرته التـى انقضـت سـاعتان مـن دون أن يلمسها ، والتى لم يعد يملك نحوهـا أى ميل الآن .. لقد زهدتها روحه حقًا ..

قلت له فى استمتاع بهذه الورطة :

ـ « وكيف نثبت هذا ؟ »

قال وهو يوقع بعض الأوراق :

ـ « لا توجد طريقة ما لم نستعمل جهاز كشف الكذب .. إننى ميّال بالطبع إلى تصديق الطبيب ، وإلى افتراض إهمال العمال .. سأوقع عليهم جزاء صارمًا .. ولنحمد اللّه على أن الرجل ناقص الأهلية ، فلن تفتح أبواب الجحيم فى وجوهنا لإضاعتنا جثته .. »

وابتلعت ريقى وإن عجزت عن ابتلاع الفكرة ذاتها .. هذا رجل لا يسأل عنه أحد لهذا دعنا لا نضيع الوقت فى معرفة مصير جثته .. دعه لا يظفر بميتة لائقة ولا دفنة محترمة .. إن أشياء كهذه تحدث على كل حال ..

قلت فجأة :

ـ « وماذا لو كان (بليتز) يكذب ؟ »

نظر لى من وسط وجهه المكتنز ، وتساءل :

ـ « ولماذا يكذب ؟ »

ـ « كى يدارى خطأه المهنى .. إن التشريح يفضح أشياء كثيرة ، وقد اعترف (أوسلر) العظيم نفسه بأنه اكتشف أنه أخطأ تشخيص تسعين بالمائة من الحالات ، وذلك حين حضر تشريحها بعد الوفاة ! »

حكّ خده مفكرًا فى شك .. ثم قال :

ـ « لا أصدق أن (أوسلر) قال شيئًا كهذا .. هل لديك مرجع ما ؟ »

ـ « لا أذكر أين قرأت هذه العبارة لكنى متأكد منها(*) .. »

ـ « أشك فى هذا .. »

(*) عبارة صادقة .. و (أوسلر) من أساتذة الطب العظام جدًا ..

ثم أردف وهو يواصل توقيع الأوراق :

ـ « أشك كذلك فى أن يكذب (بليتز) .. ولو أراد أن يكذب فكيف يدارى الجثة ؟ هل خبأها فى جيبه ليلقيها فى أقرب سلة مهملات ؟ هل دفعها بحذائه إلى ما تحت البساط ؟ »

ثم أغلق الملف وقال :

ـ « (علاء) .. حاول جاهدًا ألا تضمّ (يورجين بليتز) إلى قائمة أعدائك .. إن القائمة الحالية طويلة وتنمو بلا توقف .. إن شبابك يعطيك هذا التصور (النيتشوى) للعالم من حولنا : كلما ازداد أعدائى ازددت قوة .. لكن هذا لن يفيدك .. صدقنى ، وستدرك كم أنا محق حين تصل لعمرى .. »

* * *

٤ ـ دورى لأرى .. !

بعد ثلاثة أيام من هذا الموضوع :

لقد تركت ـ ولله الحمد ـ قسم الأورام الكريه ، وخاصة بعد أن فقد الأخ (بليتز) كل مودة نحوى .. إن هؤلاء القوم قد يمقتونك وقد يرتابون فيك ، لكن هذا لا يغير من معاملتهم العادلة نحوك .. بمعنى أنه لم يضطهدنى أو يتصيّد لى الأخطاء ، أو يدسّ قطعة حشيش فى جيب معطفى .. فقط كف عن الابتسام والحديث البشوش معى .. فيما عدا ذلك كنت أحصل على كل حقوقى .. كأنما يستمد هؤلاء القوم احترامهم لأنفسهم من عدم تحيزهم ، ومن عدم اضطهادهم لمن يكرهون .. لا أعنى بهذا أنهم

مجموعة من الملائكة .. لكنى كنت أجد لدى
أكثرهم صفات تبهرنى حقًا ، فأقول فى سرى :
« عُقبى لنا يا رب »

تركت قسم الأورام ، وعدت أمارس دورى
المعهود : المسمار الذى يدسونه فى مكان
يحتاج إلى مسمار فى وحدة (سافارى) ..

لن أكف عن لعب هذا الدور حتى أحصل على
الزمالة فى الجراحة ، وهو طريق شاق طويل
جدًا لم أقطع منه سوى بضع خطوات ..

الثقب الذى أدخلوا المسمار فيه - أعنى
أدخلونى فيه - اليوم هو قسم التوليد .. وهو
كابوس حقيقى مريع أفضل عليه أن أنام على
الأرض وأتلقى الركلات فى ضلوعى حتى أموت ..

الطبيبة الصينية الظريفة (ماى - فاى - لين)
التى لا يفهم أحد كلامها على الإطلاق .. إنها

لطيفة بحق وإعصار من الصخب والحيوية ،
لكنى لن أندهش لو اكتشفت أنها ليست صينية ،
وأنها ليست طبيبة ، وأن اسمها ليس
(ماى - فاى - لين) .. إن (كانجارو) لفظة
أسترالية معناها « عم تسأل بالضبط ؟ » حسب
(كوك) - يا له من أحمق - أنه اسم الحيوان
الوثّاب الذى يحمل صغاره على بطنه ، والذى
رآه حين نزل على ساحل (أستراليا) ..

(ماى - فاى - لين) تسكب فوق رأسى
دلوًا من الحبر الشينى من لغة قومها ، تخلطه
بالفرنسية .. وشدتنى من يدى إلى عنبر ملىء
بالنسوة الإفريقيات منتفخات البطون الصارخات ..

الممرضات يركضن .. (ماى - فاى - لين)
تعوى .. النساء يصرخن .. النقالة تهرع إلى
غرفة التوليد .. طبيب دانمركى يصرخ طالبًا

جهاز الـ (دوبلر) .. عواء مواليد من مكان ما .. زجاجة (دكستروز) تهوى فتتهشم ..

رباه ! إن هذا كابوس ..

ومن يدى جذبتنى (ماى ـ فاى ـ لين) إلى غرفة التوليد ، وجعلتنى أرتدى المريولة الواقية ، والقفازين .. ثم أمرتنى بأن أشق الغشاء الأمنيوسى لامرأة إفريقية لا تكف عن الصراخ .. الغشاء الأمنيوسى يحيط بالجنين والسائل الأمنيوسى ، وهو أشبه بكيس من البلاستيك امتلأ بالماء إلى درجة الانفجار ..

قربت وجهى ولمست الكيس بطرف الجفت و ..

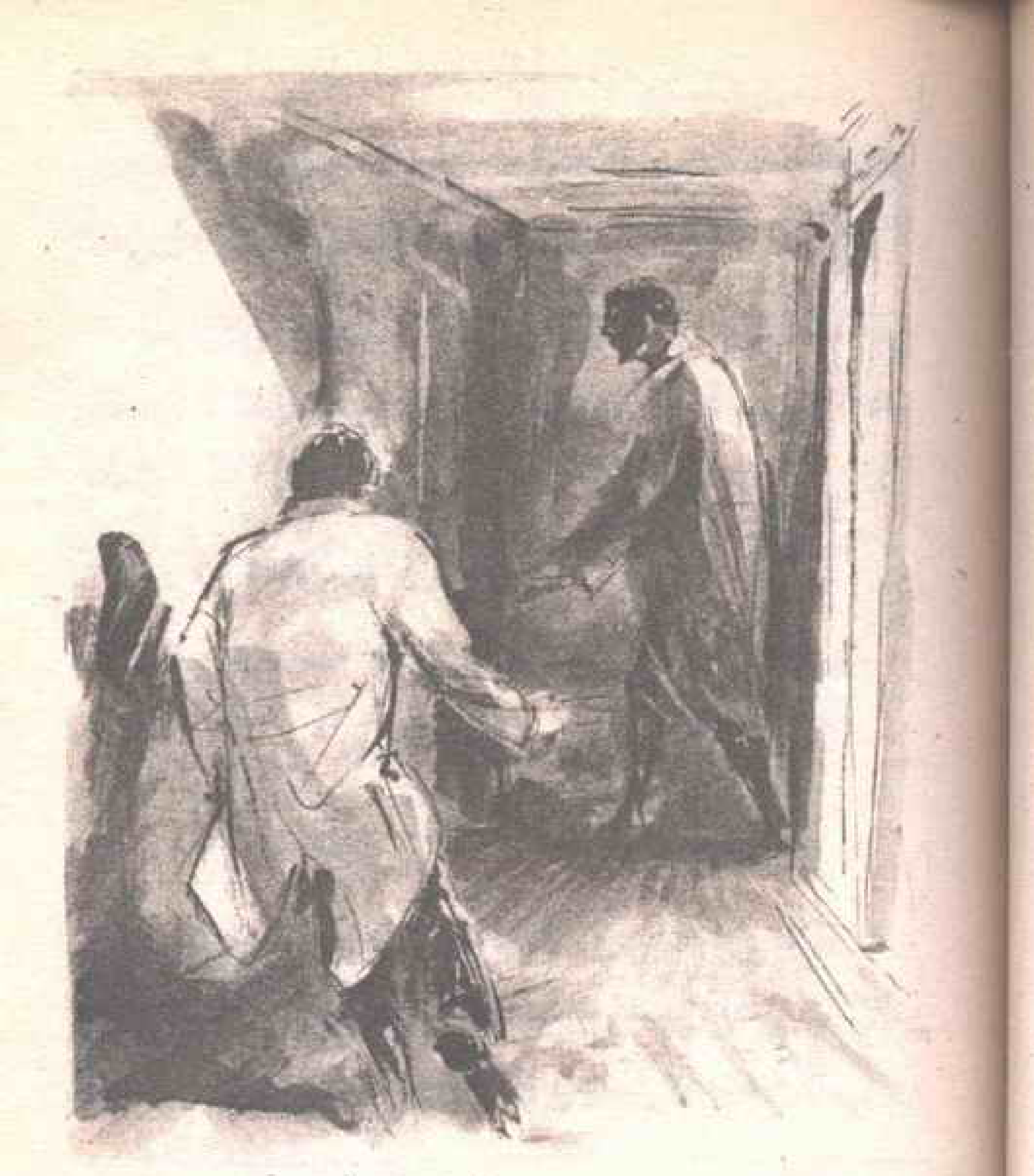
طش ش ش ش ش .. !

كما يحدث لكل الحمقى انفجر السائل الأخضر الكريه فى وجهى ، ليغرق عويناتى ولحيتى

ويبلل شعرى وكل ثيابى ، ووقفت أطلق السباب بالعامية المصرية وأبصق كل ما ابتلعته .. إننى نسيت واجب الحذر عند القيام بهذه المهمة الكريهة .. راحت (ماى ـ فاى ـ لين) تشتمنى بالصينية هى الأخرى ، ثم أشارت إلى الباب ، وصاحت وهى تتولى العملية بنفسها :

ـ « أخرج .. أخرج .. مفيد هنا لا .. مفيد هنا أنت .. لا .. »

وهى بفرنسيتها الشنيعة تعنى بالتأكيد أننى مطرود لأننى أزيد من متاعبها لا أكثر ، ولحسن الحظ أنهم لا يملكون روح الدعابة هنا ، لأن منظرى وقد ابتللت كان مضحكًا أكثر من كل فطائر القشدة التى تلقاها ممثلو السينما الصامتة فى وجوههم .. كتكوت سقط فى إناء شربة .. هذا هو أنا ..



كان يمشى هناك فى تؤدة ، ووجهه ميممًا شطر نهاية الردهة ..

غادرت المكان سعيدًا برغم كل شىء ..

إن الفرار من مستشفى المجانين هذا ليس إهانة إلى هذا الحدَ .. ونظرت إلى ساعتى .. إنها الثانية بعد منتصف الليل .. جميل .. هو الاستحمام ثم النوم إذن ..

ومشيت عبر الردهة المظلمة أدندن ..

ثم ..

★ ★ ★

كان يمشى هناك فى تؤدة ، ووجهه ميممًا شطر نهاية الردهة ..

من اللحظة الأولى أدركت أنه منهم ..

لم تكن مشية طبيب واثقة ، ولا مشية ممرضة متعجلة ، ولا مشية لص متسللة ،

ولا مشية رجل أمن مدققة ..

كانت مشيته لا تمت لعالمنا بصلة ، وأعتقد أننى لم أر مثلها قط فى حياتى ..

لم يكن متعجلاً كأنه يملك كل الوقت فى الكون ، لكن شيئًا من تراخ لم يبدُ فى حركاته كذلك ..

وراح قلبى يخفق كالطبل ..

أنا أمقط هذا الشىء .. أشمئز منه .. أكرهه ..

صحت من حلقى الجاف :

ـ « أنت هناك ! قف ! »

استدار للوراء لكنى لم أر وجهه فى الظلام ، ولم يبدُ أنه على استعداد كبير لطاعتى .. ببساطة أدار وجهه وواصل رحلته المبهمة إلى .. ردهة الميعاد .. !

وقلت لنفسى : « إما الآن أو لا للأبد .. يمكن أن أبتعد وأحكى القصة غدًا لـ (بسّام) ، ولسوف نندهش معًا ، ونصفّر معًا أو أن ألحق به وأمسك به وأستجوبه .. »

وفى النهاية تغلب فضولى القاتل .. وجدت نفسى أركض خلفه فى الردهة متوقعًا فى أية لحظة أن يتلاشى .. كلهم يتلاشى فى كل ما سمعت من قصص ..

لكنه ظل هناك .. إلى أن قطعت الستة أمتار التى تفصلنى عنه ، واعتصرت ذراعه فى شىء من العنف ..

كان هشًا بحق ، وترنح قليلاً من فرط الجذبة ، وكان يواصل المشى بنفس الطريقة الآلية .. لكنى جررته بعنف أكثر إلى الوراء وألصقته بالحائط ..

ـ « من أنت ؟ »

قلتها متأخرًا بعض الشىء لأننى فى هذه اللحظة رأيت وجهه ..

★ ★ ★

وكانت (برنادت) قد فرغت من إعطاء المحاليل لذلك الرضيع البائس ، الذى كاد الجفاف يفتك به .. لقد عادت اللمعة إلى عينيه ، واستعادت كرتا عينيه صلابتهما ، واسترد جلده مرونته ..

تأكدت من أن الأم تمسك برأسه جيدًا ، وأن إبرة الفراشة تم تثبيتها بعناية باللاصق ، ثم أصدرت بعض التعليمات للممرضة الكونغولية الواقفة ، وتثاءبت ونظرت لساعتها : الثانية صباحًا .. لقد حان الوقت لبضع ساعات من النوم لأن يومًا شاقًا ينتظرها غدًا ..

مشت فى الردهة خافتة الضوء قاصدة مسكن الأطباء ..

كان هذا هو الجزء المخيف من يومها ، وكانت تتمنى دومًا أن تقابل وجهًا مألوفًا ، لكنها لم تجرؤ قط على إعلان خوفها من اجتياز هذه الردهة .. إن النساء هستيريات .. هكذا يؤمن الرجال ، وهكذا سيتهمونها لو فتحت فمها ..

وعند طرف الردهة خافت الإضاءة ، استطاعت أن ترى شبحين يلتحمان ..

أجفلت ذعرًا ، وتراجعت للوراء ..

لكن صوتى المألوف خرج من أحد الشبحين ، وكان يقول :

ـ « تعالى يا (برنادت) .. ساعدينى ! »

★ ★ ★

هرعتْ لترى المشهد أقرب ..

كنت ملتحمًا بالماشى ليلاً جوار جدار ، أحاول أن أبقيه حيث هو ، لكنه كان فى حالة بالغة العصبية ، وراح يقول لغوًا ما لا أعرف كنهه .. بينما ذراعاه يرتفعان ويهبطان بلا انقطاع .. كجناحى طائر مربوط للأرض ..

كنت قد رأيت وجهه ..

ما كان وجهًا محببًا .. ليس مخيفًا بشكل خاص ، لكن ذلك التعبير الخاوى الذاهل قد يكون مفزعًا فى حد ذاته ..

رجل فى الخمسين من عمره .. نحيل جدًا .. يلبس ما يشبه معطفًا أبيض من معاطف الأطباء ، لكنه يلبسه على اللحم ..

ولم تكن مقاومته فعالة لكنها عنيدة مصرّة ..

وأدركت أنه لا يفهم حرفًا من كلامى .. ربما لا يسمع حرفًا كذلك ..

ـ « ممففف بررررر مف أغا أاااا ف ف ف ! »

كان يتكلم بهذه اللغة ، ولعابه يتساقط بلا انقطاع .

الملحوظة الأخرى المهمة جدًا هى أنه كان باردًا .. باردًا كالثلج .. لا أعرف أهمية هذا لكنها الحقيقة ..

وخطر لى أنه خارج من غيبوبة نقص الحرارة .. ولكن كيف ؟ فى الكاميرون فى هذا الوقت من العام ؟ لو كان المتكلم مجنونًا فليكن المستمع عاقلاً ..

صاحت (برنادت) فى ذعر :

ـ « (علاء) ! أترك هذا الشىء ! إنه .. إنه مخيف ! »

حتى هى حزرت أنه (شىء) .. الواقع أننى بدأت أعتقد الشىء ذاته .. وحاولت أن أبتعد عنه ، لكنه يمسك هذه اللحظة بمعصمى كالعلقة ، وواصل المزيد من الـ (هممف ف ف) والـ (أغغغف) ..

ـ « لا أستطيع تركه .. إنه متشبث ! »

جرت (برنادت) ووجهت له بحذائها ركلة فى ظهره .. لم يكن حذاؤها قويًا لأنه مطاطى ، لكن الرجل تأوه وترك معصمى ..

وفى اللحظة التالية حدث شىء رهيب ..

★ ★ ★

فى البدء حسبت عينى تخدعنى ..

لكنى أدركت أنه يحدث حقًا ..

الفقاقيع التى بدأت تحتشد تحت جلد الرجل .. خمس .. ست .. عشر .. مئات الفقاقيع تملأ وجهه وذراعيه وأعلى صدره ..

ثم هى تنفجر .. تنفجر واحدة تلو الأخرى ، تاركة جلدًا متحللاً متهدلاً .. ومن فمه .. رباه ! لن أكمل الوصف ..

لقد كان كله ينفجر .. يغلى .. وهو مشهد لن تصدقه حتى تراه ..

وحين انفجرت عيناه أخيرًا فقدت (برنادت) رشدها ..

★ ★ ★

الآن أقف وحدى لاهثًا أرتجف كذيل حية الجرس .. جوارى على الأرض طبيبة كندية فقدت الوعى .. وعلى بعد خطوات منها رجل

ـ أو شىء يشبه الرجل ـ تحلل جلده كله تقريبًا ، ولم تعد له عينان ..

أدركت أنه مات .. إنها ميتة مريعة لكننى لا أفهم سببها ..

نظرت خلفى لأتأكد من أنه لن ينهض ، واتجهت إلى جهاز الهاتف على الجدار ، وطلبت رجال الأمن ..

★ ★ ★

٥ ـ إنهم يعودون أحيانًا ..

وكما هى العادة ، وقف البروفسور (بارتلييه) يرمق كل هذه الفوضى فى عدم تصديق وذهول .. لقد اتصل به أحدهم ، وها هو ذا يعتقد أنه مازال يحلم وأن هذا كله كابوس ..

سألنى وهو يرمق الجسد الراقد على المحفة :

ـ « ما هذا بالضبط ؟ »

ـ « أعتقد أنه (زومبى) يا سيدى لو طلبت رأيى .. »

ـ « وماذا يفعل (زومبى) فى وحدتى ؟ »

ـ « يفعل ما يفعله أى (زومبى) آخر .. »

وحين عرف تفاصيل القصة راح يدور كالمجنون حول نفسه ، ويتكلم بلغة فرنسية متلاحقة لم أفهم منها حرفًا كالعادة ..

فى النهاية قال لرجال الأمن :

ـ « خذوه إلى المشرحة .. لابد أن نفهم كنه هذا الرجل .. »

وأشار لى بإصبعه المكتنز :

ـ « أما أنت .. فإننى سأحقق معك غدًا .. سأحقق مع الجميع .. »

هذه هى العادة .. إنه يخلط دومًا بين المصائب وبين مكتشفها .. لا يجد سواى كى يلومه كلما ظهرت ثغرة فى الآلة العملاقة التى هو مسئول عنها ..

كانت (برنادت) تترنح ، فقلت إننى سأوصلها لحجرتها .. وانصرفنا ..

★ ★ ★

وقالت لى وهى تعالج باب الغرفة بمفتاحها :

ـ « (علاء) .. هل كان هذا (زومبى) حقًا ؟ »

دسست يدىَ فى جيب معطفى المبتلَ بالسائل الأمنيوسى ، وقلت :

ـ « إن فكرة (الزومبى) تقوم أساسًا على قدرة البشر على إعادة الحياة لموتى البشر .. هذه فكرة لا يقبلها دينى وبالتأكيد لا يقبلها دينك ، وهى تتعارض مع العلم الذى نعرفه حتى الآن ..

« المفترض ـ حسب أساطير (الفودو) ـ أن الساحر الشرير يمتطى جواده فى الليل فى وضع مقلوب .. يتجه لمنزل ضحيته ، حيث يمتص روحها عبر ثقب الباب ويضعها ـ الروح ـ فى زجاجة .. هكذا تموت الضحية ، وتدفن .. وهنا يذهب الساحر خلسة إلى القبر ، ويفتحه ، ويمرر الزجاجة تحت أنف الجثة فتنهض .. »

وضعت يدها على شفتيها لتكتم صرخة ، وقالت :

« يا للهول ! وكيف عرفت هذا ؟ »

ـ « لا تنسى أن كل هذه الأساطير جاءت من غرب إفريقيا .. بعد هذا تمشى الجثة الذاهلة مشيتها المميزة التائهة ، وتتبع الساحر إلى أى مكان ، وتفعل كل ما يطلبه ، وهو ـ غالبًا ـ العمل فى حقول القصب .. »

ـ « وكيف ينقذونها ؟ »

ـ « يقولون إن الماء بالملح يحرّر (الزومبى) ويجعله يعرف أين هو ومن هو ، وغالبًا ما ينتقم ممن آذاه انتقامًا مريعًا .. لهذا يرش الأهالى فى (جامايكا) أعتاب ديارهم بالماء المملح ليلاً ، ويضعون كسرة من الخبز .. كى يتفادوا أذى (الزومبى) .. »

ـ « وماذا عن (زومبى) السينما ؟ أولئك الذين يلتهمون الناس ، ويفتحون جماجمهم من أجل مذاق مخهم ؟ »

حككت لحيتى وابتسمت :

ـ « هذه خرافة نشأت من خرافة .. إن (الزومبى) أسطورة ، لكن (الزومبى) الذين يأكلون البشر خرافة نشأت من هذه الأسطورة .. نحن فى مصر لم نر أفلام (روميرو) و (لوتشيو فولسى) ؛ لكننى أعرف من قراءاتى أن هذه الأفلام هى مصدر خرافة (الزومبى أكلة المخ) .. »

نظرت لى هنيهة ، وارتجفتُ .. كنت ألعب معها نفس دور الطفل الخبيث الذى يجرى حاملاً سحلية وراء طفلة مذعورة ..

قالت لى :

ـ « إن النوم مستحيل بعد هذه القصص .. هل تدخل لتشرب شيئًا معى ؟ »

هززت رأسى وأنا أرمق حجرتها النظيفة المعطرة ذات (الموكيت) الوردى .. بدت لى واحة من الحلم وسط صحراء الواقع ..

ـ « لا شكرًا .. حاولى أن تنامى لأن الصباح قد اقترب .. »

بالطبع لن أدخل .. إن هذه الواحة ليست من حقى .. بعد ..

يفصلنى عنها تهيب نفسى هائل ، وتقديس شديد .. ويفصلنى عنها عقد زواج موثق ، وموافقة أمى ، وموافقة أبى (برنادت) الجاف ثقيل الظلّ .. و ـ بالطبع ـ موافقة (برنادت) نفسها !

وتنهدت واستدرت ، تاركًا إياها وحيدة تحلم بـ (الزومبى) ..

★ ★ ★

وفى التاسعة صباحًا ، كنت فى قسم الحاسب الآلى .

ـ « صباح الخير يا حبيب القلب ..»

أنتم الآن تعرفون (جرترود) الزنجية الأمريكية المسئولة عن الحاسب هنا ، وتفهمون طريقة مزاحها .. لا تندهشوا إذن ..

قلت لها فى كياسة :

ـ « صباح الخير يا غالية .. لدىّ طلب معين لديك .. »

ثم قررت أن أبدو وسيمًا .. دع سحر الشرق ـ لو كان عندك واحد ـ يؤدى عمله ، حتى لاترفض ما من حقها أن ترفضه .. سبّلت عينىّ وقلت :

ـ « أنت فاتنة اليوم يا (جرترود) .. »

ـ « تبًا لك من مخاتل .. ! »

لكن أسنانها البيضاء اللامعة قالت لى إنها ليست غاضبة إلى هذا الحدّ ، فقلت لها :

ـ « أريد معرفة الأشخاص الذين دخلوا المستشفى ، ولم يخرجوا منها .. بعبارة أدق : الذين ماتوا ولم يذهبوا إلى المشرحة .. »

ـ « سؤال غريب يا (عسل) ، لكن (جرترود) العجوز المنحطة ستجيب عنه .. »

وراحت تداعب أزرار المفاتيح بسرعتها المذهلة ، ولم تكن هى بالطبع التى صنعت قاعدة البيانات الهائلة هذه .. إنها شركة ألمانية برمجت الجهاز وعلّمت (جرترود) استعماله ..

فى النهاية بدأ الورق المثقب يخرج من الطابعة .. و ..

كريييك .. ! كريييك !

تقلص وجهى من الصوت الشنيع ، فقالت فى استمتاع :

ـ « أنت إذن من الذين لا يحتملون صوت احتكاك (الفوم) الإسفنجى .. »

ـ « أظن هذا .. إن هذه الطابعات النقطية قاتلة .. »

وأخيرًا مزقت الورقة وناولتنى إياها ..

كانت هناك خمسة أسماء .. كلهم دخلوا المستشفى فى ستة الأشهر السابقة .. كلهم ماتوا بأمراض مستعصية تتراوح من السرطان إلى الإيدز إلى التصلب المنتشر .. ولم يتسلم أهلهم الجثث .. ولم يظهر أى شىء عنهم فى المشرحة .. دائمًا خانة نتيجة التشريح بيضاء من غير سوء .. وطبعًا كان آخرهم هو (لوجاس) ..

سألتنى وهى تلوك قطعة من اللادن بشفتيها الغليظتين :

ـ « عم تبحث بالضبط ؟ »

قلت وأنا أدسَ الورقة فى جيبى ..

ـ « لا أدرى .. ثمة شىء مريب يحدث ، لكنى لا أفهمه تمامًا .. والآن وداعًا أيتها الحسناء .. أيتها الملكة الأبنوسية .. »

واتجهت للباب وأنا غارق فى الخواطر السوداء ..

★ ★ ★

تثاءب الشيخ (أونجازا) ، وأشعل لفافة تبغ ثم سألنى :

ـ « تقول من الذى أرسلك ؟ »

ـ « (بودرجا) .. (بودرجا) قال إنك ستفيدنى فى هذا البحث .. »

بصق ، وراح يمضغ شيئًا لا أدرى كنهه ، ثم قال :

ـ « أنت تتساءل عن العائدين من الموت .. »

ـ « نعم .. نعم .. »

راح يحدَق فى طرف اللفافة المشتعل ، وقال بشرود :

ـ « إنهم يعودون أحيانًا .. هذا حق .. »

ابتلعت خواطرى ، ورحت أجوب بعينى فى أرجاء الكوخ ..

كان كوخًا إفريقيًا عاديًا له كل سمات أكواخ (البانتو) .. وكانت المرأة العجوز جالسة على الأرض فى وضع (الاحتباء) الشهير تعجن جذور (الكاسافا) ، وتصغى لمحادثتنا الفرنسية التى لاتفهم منها حرفًا ..

لقد كان (بودرجا) يعرف القصة كلها ..

وقد قال لى فى غموض :

- « إنهم فى القرية المجاورة يتكلمون عن العائدين من الموت هذه الأيام .. »

سألته فى لهفة :

- « هل لديك تفاصيل أكثر ؟ »

- « لا .. عليك أن تذهب هناك بنفسك وتسأل عن (أونجازا) العجوز صاحب البقرات الثلاث .. »

- « لكن .. الترجمة .. إننى بحاجة إليك معى هنـ .... »

- « إنه يجيد الفرنسية .. »

وهكذا وجدت نفسى أذهب - مترجلاً - إلى تلك القرية .. لا أعرف من لغة قومها سوى

كلمة واحدة : (أونجازا) .. وطبعًا كان هناك ثلاثة منهم ، لذا رحت ألوح بثلاثة أصابع وأخور كالماشية ،حتى فهم أحدهم - إنهم عباقرة هنا - أى (أونجازا) أريد ..

وهأنذا جالس فى كوخه أصغى لحكمته السرمدية ..

ودعوت الله ألا يموت الرجل قبل أن يحكى كل شىء ، وهو شىء عسير بعض الشىء لو رأيت منظره معى .. إنه جثة لا ينقصها سوى الدفن ..

قال العجوز :

- « إنهم يهيمون فى هذه القرية .. يجولون بين الأكواخ حين يتوغل الليل ، ونحن نراهم ونسمعهم ، لكننا لا نجرؤ على استيقافهم .. »

سألته فى غيظ مكتوم :

- « ومن قال إنهم ماتوا أصلاً ؟ »

سعل مرتين وبصق ثلاث مرات ، ثم قال :

- « هذا سهل .. نحن نعرفهم ، ونعرف أنهم ماتوا منذ أعوام .. إن ابنى واحد منهم وقد مات منذ عشر سنوات .. هل تريد دليلاً آخر ؟ »

★ ★ ★

٦ - درس فى التشريح ..

سألت العجوز وأنا أرتجف انفعالاً :

- « هل رأيت ابنك يموت ؟ »

- « كان فى تلك المستشفى فى (أنجاوانديرى) ومات .. »

- « تعنى (سافارى) ؟ »

سعل واهتز صدره ثم قال :

- « لا .. لم تكن هناك (سافارى) وقتها .. كان مستشفى خاصًا ببعض الإرساليات .. أظن أنه لم يعد هناك .. »

فكرت حينًا ثم سألته :

- « وهل زرت قبر ابنك بعد قدوم هؤلاء العائدين ؟ »

ـ « ماذا تعنى ؟ »

ـ « أعنى : هل هو مفتوح ؟ هل نبشه أحدهم ؟ »

تجعد وجهه فصار كثمرة الباذنجان الأسود بعد أسبوع عند الخضرى ، وقال :

ـ « لا .. لا .. ما زال الجسد هناك .. لكن الروح تهيم .. والروح تشبه الوعاء الذى كانت فيه تمامًا .. »

ازدادت حركة ركبتى عصبية ، وسألته السؤال الأخير :

ـ « بم توفى ابنك رحمه الله ؟ »

ـ « إنه سرطان الدم .. هكذا قالوا لنا بعد ما فرغوا من تشريحه .. »

وفى نفسى شعرت بالرضا .. هؤلاء القوم مثقفون حقًا .. إنهم دانون من الحضارة ،

ويعرفون سرطان الدم وسواه من لوازم التمدين .. يسعدنى أن أبتعد عن الـ (داوا) التى تبسط سيطرتها على كل قبائل إفريقيا ، والتى يفسرون بها كل الأمراض من جديرى الماء حتى سرطان الشبكية ..

★ ★ ★

وفى المشرحة ارتدى (جيديون) قفازيه ووقف يتأمل الجثة بعض الوقت .. ثم رفع القناع ليدارى أنفه ..

وسألنى من وراء القناع :

ـ « أنت أول من رآه ؟ »

ـ « نعم .. وعمليًا انفجر أمامى .. »

هزّ رأسه فى عدم فهم ، وأشار إلى مساعده الكورى كى يفتح جهاز التسجيل كى يملى ملاحظاته ، وقال لى :

- « ارفع قناعك إلى أنفك .. »

سألته وأنا أفعل كما أمر :

- « هل تخشى عدوى ما ؟ »

- « لا أدرى .. إننى لا أعرف ما علىّ أن أتوقعه .. لعله فيروس جديد لم يعرفه العلم بعد .. إن منظر المتوفى بجلده الذى بدأ يتفكك ويتجزأ ، يذكرنى ببعض حالات متلازمة (ستيفن جونسون) .. كما يذكرنى بداء الـ S.S.S.S .. أو حالات الصدمة السامة .. »

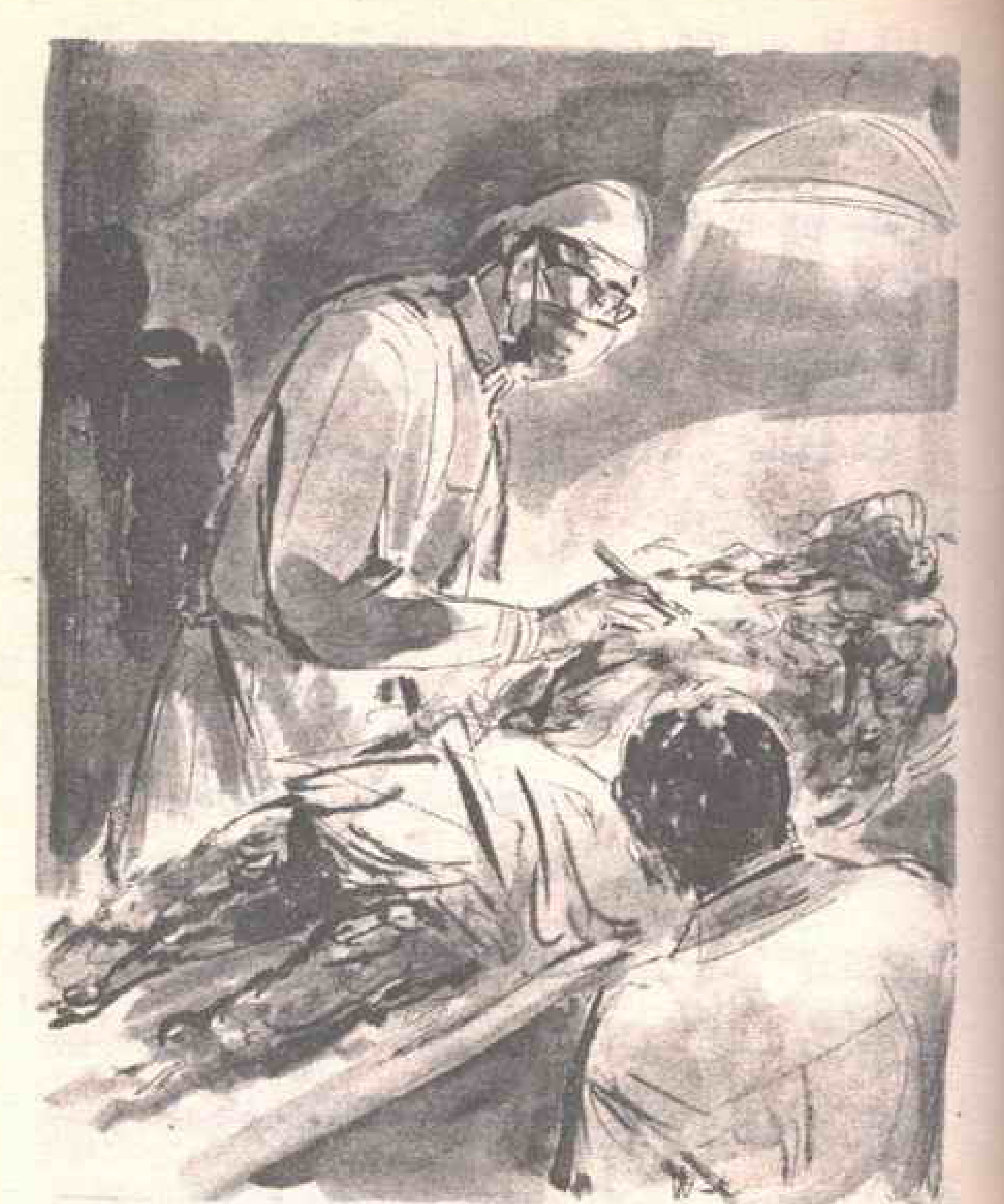
كل هذه احتمالات جيدة ، وقد قرأت عنها بعناية - فيما بعد - فى المراجع الطبية ، لكن ما من واحد منها يؤدى إلى انفجار العينين بهذا الشكل المريع ، كما أن واحدًا منها لا يحيل المريض إلى أرنب مسلوخ خلال ثوان ..

إننى سعيد لكون (برنادت) رأت المشهد معى ، وإلا لحسبت أننى أخرف .. قلت للبروفسور البريطانى :

- « لقد بدا لى الأمر كأنه ينفجر .. وكأنه صار تحت ضغط منخفض فجأة .. هناك شىء كهذا يحدث للغطاسين الذين يصعدون للسطح بسرعة .. إن اسمه داء (القيسون) على ما أذكر .. »

مط شفته السفلى من تحت القناع ، بمعنى أن ما أقوله سخيف جدًّا وغير منطقى ، وربما يدل على تخلف عقلى مطبق ، وقال :

- « إنهم لا ينفجرون يا فتى .. إن (النتروجين) فى دمهم يعود لحالته الغازية ، من ثم يغلى دمهم فعليًّا ، وتسدّ فقاعات (النتروجين) شعيراتهم الدموية .. ولهذا ينثنون على أنفسهم ألمًا ويموتون .. لا يوجد مرض أعرفه يجعل



هززت رأسى موافقًا ، على حين أخذ هو الشهيق العميق المعتاد ، وأمسك بالمبضع وبدأ يشق الجلد .. يشق ما تبقى منه ..

الإنسان ينفجر ما لم يبتلع إصبعًا من الديناميت ، ويشعله بالداخل .. »

هززت رأسى موافقًا ، على حين أخذ هو الشهيق العميق المعتاد ، وأمسك بالمبضع وبدأ يشق الجلد .. يشق ما تبقى منه ..

* * *

ما زلت مصرًا على أن لوحة (رمبرانت) الشهيرة (درس فى التشريح) ؛ لوحة سخيفة ، وأن وضع التلاميذ المحيطين بالجثة غير طبيعى ملىء بالافتعال ، وأن ذراع الجثة لا يتفق مع منظور الرؤية ..

لماذا تذكرت هذا الآن ؟

* * *

وفى الداخل كانت الفوضى ضاربة أطنابها .. كل الأعضاء الداخلية كانت منفجرة أو نزفت دمًا ..

وكان جدار المعدة الخارجى مليئًا بتلك الفقاقيع / الحويصلات البشعة التى لم تنفجر بعد ..

(جيديـون) يلهـث انفعالاً ، وهو لا يصدق ما يراه ..

ـ « هـذا .. هـذا غريب .. هـذا .. هـذا .. مفزع .. »

حتى الكورى هرع إلى مكان ما ، فأحضر آلة تصوير ، وراح يدور حول الجثة ويلتقط عشرات الصور ، والفلاش لا يكفّ عن التوهج ..

قال بلهجته الغريبة وهـو يديـر ذراع آلـة التصوير :

ـ « كأنها صور أحشاء البعوضة من الداخل حيث يزدهر طفيل الملاريا .. لقد رأيت صورًا كهذه بالمجهر الإلكترونى .. »

لم يردّ (جيديون) وواصل العمل ..

لقد أنسته الدهشة أن يتكلم ليسمع جهاز التسجيل ..

فى النهاية أخذ عينات من المخ ومن الرئة والقلب .. إلخ وألقاها فـى مرطبانـات تحـوى الفورمالدهايد ، توطئة لفحصها تحت المجهر ..

إنه عـالم أمراض وليس طبيبًا شرعيًا على كل حال ..

★ ★ ★

وبعد ساعات جلس ينظر عبر عدسات المجهر ، وأنا أقف بجواره بانتظار ما سيقول .. إنه محترف ولم يعد النظر بكلتا العينين مشكلة بالنسبة له ، وهو أمر لم أتعلمه قط بعد هذه السنوات ..

كان مجهرًا عتيق الطراز لكنه يسمح بإدراج قطعة تعليمية ، تتيح لشخص واحد أن ينظر مع

(جيديون) .. وقد قام الأخير بتثبيت هذه القطعة ثم أمرنى أن أنظر معه .. فجلست أمامه ..

قال دون أن أسأله :

ـ « هذه شريحة من الكبد لو لم تكن قد لاحظت ذلك .. »

وهذه مبالغة ، لأن الأعمى نفسه يستطيع تمييز شرائح الكبد فى أى مكان .. وبدأ الرجل يقرب مجال الرؤية أكثر ، ثم قال :

ـ « إن الخلايا منتفخة أكثر من اللازم ، وبعضها قد انفجر بالفعل .. يبدو أن غلياناً سيتوبلازمياً قد حدث .. لقد رأيت هذا المشهد كثيراً فى الخلايا التى عولجت بالليزر .. هذا يؤدى لانفجار خلوى Micro Explosion مماثل لما أراه الآن .. »

وكان ما يقوله واضحاً أمام عينى بحق ..

قال بصوته الرتيب :

ـ « الأمر واضح .. هذا الرجل انفجر فعلاً على المستوى الخلوى والنسيجى والعضوى .. يوجد الكثير حقاً من الماء داخل الخلايا .. »

ثم رفع منظاره نحوى وسألنى :

ـ « هل لاحظت شيئاً معيناً فى ملمس الرجل ؟ »

★ ★ ★

.. كان بارداً .. بارداً كالثلج .. لا أعرف أهمية هذا لكنها الحقيقة ..

وخطر لى أنه خارج من غيبوبة نقص الحرارة .. ولكن كيف ؟ فى الكاميرون فى هذا الوقت من العام ؟ لو كان المتكلم مجنوناً فليكن المستمع عاقلاً ..

صاحت (برنـ ....

★ ★ ★

- « كان باردًا يا سيدى .. باردًا كالثلج .. »

- « هم م م ! كالثلج ؟ غريب هذا .. »

وواصل تفحص الشريحة ولم يعلق .. بعد قليل انتزعها ووضع شريحة أخرى ، من الرئة هذه المرة ، وواصل الفحص .. كانت النتائج شبيهة بهذا فيما عدا انفجار شعيرات لا حصر لها .. لقد حدثت نفس التغيرات المريبة فى أوعية الرجل الدموية فلم تتحمل أكثر ..

قال (جيديون) ضاغطًا على كلماته :

- « هذا الرجل خرج من الثلاجة قبل موته بدقائق .. ! »

* * *

٧ ـ كرايونيكس ..

فى مكتبه أعدَّ (جيديون) بعض القهوة لنفسه من ترموس صغير ، ثم تذكَّر وجودى فصبَّ لى بعضها فى كوب ورقى ، وعاد ليجلس على مقعده الدوّار ، وراح يؤرجحه فى عصبية ..

كان شارد الذهن يعتصر الكوب بكفيه ، ويفكر ..

وكان بطبعه سمجًا قليل الكلام ، كما أنه لم يكن يطيقنى لأسباب عديدة ، لهذا آثرت الصمت بانتظار ما سيقول ، عالمًا أن أول سؤال سيتلقى جوابًا مؤلمًا ..

بعد قليل سألنى وهو يتأمل بخار القهوة :

ـ « هـل سمعت عن (الكرايونيكـس) من قبل ؟ »

★ ★ ★

(الكرايونيكس) ؟ لا طبعًا .. هذا مصطلح جديد علىّ ..

أخبرته بجهلى ، فهزّ رأسه كأنما يتوقع هذا ، وقال :

ـ « (الكرايونيكس) Cryonics هو نوع من الخيال العلمى ، وربما لم تتم تجربـة واحدة سليمة حتى اليوم .. إن العلم الحقيقى يختلف عن علم القصص المصورة .. صحيح أنه يعدنا بالقليل ، لكنه ذلك القليل المؤكد الموثوق بـه .. بعبـارة أخـرى : العلـم الحقيقـى هـو الحقيقـةَ المؤلمـة المحـدودة ، بينمـا العلـم الخيـالى هـو الأحلام بكل بهائها وجمالها .. »

ورشف رشفة من القهوة ، وبدت خيالات لا تنتهى تطوف حول عينيه الزرقاوين .. أدركت أنه يعانى صراعًا داخليًّا مروعًا بين ما يراه وما يعتقده ، وبعد صمت ثقيل قال :

ـ « لقد نبتت الفكرة لأول مـرة ـ على قدر علمى ـ فى قصة خيال علمى لكاتب فرنسى هـو (إدمون دابو) .. يبدو أن هذا كـان فـى القرن السابع عشر(*) القصة اسمها (الرجل ذو الأذن المكسورة) .. فى هذه القصة تم تجميد مريض لا يُرجى شفاؤه ، وذلك من أجل إعادته يومًا ما بعد مـا يموت أطبـاء العصر الجهلـة ، ويـأتى أطباء أفضل منهم ..

« بعد هـذا اعتنـق علمـاء كثـيرون الفكـرة

(*) للدقة .. كان هذا فى القرن التاسع عشر عام ١٨٦١ .. لكننا لا نطالب (جيديون) بأن يتذكر كل شىء .. أليس كذلك ؟

ذاتها .. كلهم كان يؤمن بأن الموت ذاته ليس سوى (مرض لم يُعرف علاجه بعد) ، وكان أملهم أن يبقى الشخص فى ظروف تحفظ أنسجته ، إلى أن يجىء يوم يعرف فيه العلم كيف يقهر داء الموت ، وعندها يعالجون هؤلاء القوم فيعودون إلى الحياة .. »

قلت له محتجًا :

ـ « لكن هذا الكلام .. »

ـ « محض هراء .. » ـ قالها وهو يرفع كفه ليسكتنى ـ « .. أعرف هذا » لا أدرى مقدار تدينك ، لكن الفكرة ذاتها تتنافى مع سنة الطبيعة وميثاقها .. لا بد من الموت .. والكثير من الموت كى تستمر عجلة الحياة ..

« لنقل إن هذا كان جزءًا من غرور علماء القرن التاسع عشر ، الذين حسبوا أنهم واصلون

لسرّ الحياة ذاته خلال أعوام ، وفى جو كهذا كتبت (مارى شيللى) قصة (فرانكنشتاين) عن العالم الذى خلق كائنًا حيًا ..

« على كل حال لقد كان الإغراء بالنسبة لهم شديدًا ، وقد قال (بنيامين فرانكلين) مرارًا إنه يتمنى لو أعيد إلى الحياة بعد مائة عام .. فقط خمس دقائق يعرف فيها ما حدث للعلم والسياسة والاقتصاد ، ثم يموت بعدها .. لا يهمّ ..

« إن معنى هذا الكلام هو تحول القبور إلى غرف نوم .. »

قلت وقد تقلصت معدتى :

ـ « لكن هذا لم يحدث طبعًا .. »

ـ « ولن يحدث لأسباب كثيرة يا فتى .. لكن بالنسبة لهم كانت هناك دلائل معينة : الباكتريا تموت أعوامًا طويلة فى درجات حرارة قريبة

من الصفر ، ثم تزدهر وتنتعش وتمارس عملها من جديد .. وقد حسبوا أن ما ينطبق على الحيوان وحيد الخلية يمكن أن ينطبق على الحيوانات عديدة الخلايا .. »

نظرت إلى المشرحة من حولى .. وقلت :

ـ « إذن (الكرايونيكس) هى (الإحياء المؤقت) .. أنا أعرف هذا الحلم من قديم .. إنهم يأملون أن يجمدوا المرضى بداء عضال أعوامًا عديدة ، حتى يجد الطب مخرجًا لهم .. ربما أقبل هذا لكنى لا أقبله بالنسبة لمن ماتوا فعلاً .. »

ألقى بالكوب الورقى فى القمامة جواره ، وقال :

ـ « بل (الكرايونيكس) تعمل أساسًا على تجميد من ماتوا بالفعل .. كما قلت لك هم

يعتبرون الموت داء عضالاً آخر يمكن الشفاء منه .. »

ثم فتح أربعة أصابع من كفه ليعدّ عليها :

ـ « دعنى أفرق هنا بين أربعة مصطلحات يخلط الحمقى بينها كثيرًا ، ويستعملون هذا بدل ذاك ، كما هو معتاد :

« الـ Cryogenics هو علم فيزيائى برىء من كل هذا الهراء .. إنه العلم المختص بدراسة خواص المواد فى درجة الصفر المئوى ..

« الـ Cryobiology هو علم الأحياء فى درجات الحرارة المنخفضة .. إنه يدرس أثر البرد على الأعضاء المهمة كالقلب والكلى .. وحتى هذه اللحظة لم يتضح لنا أن البرد مأمون التأثير ..

« الإحياء المؤقت Suspended Animation هو إيقاف العمليات البيولوجية فى الجسد الحىّ .. وهذا علم لا وجود له حتى اليوم ..

« الـ Cryonics هو تجميد الموتى أو المرضى الميئوس من شفائهم .. وبالطبع أنت تعرف أن اللفظة البادئة Cryo هى لفظة يونانية معناها (البرد) .. الصقيع .. وحتى اليوم لم تتم عملية كرايونيكس ناجحة قط ، ببساطة لأن الصقيع يدمّر الأنسجة تمامًا .. »

سألته وقد بدأ الكلام يروق لى :

ـ « قلت إنهم يجمدون الموتى .. فمتى يفعلون هذا ؟ إن الجسد سرعان ما يتعفن كما تعلم .. »

مطّ شفته السفلى احتقارًا ، وقال :

ـ « هناك موت إكلينيكى ـ حين تضع أنت السماعة وتطرق برأسك وتقول : (أنا آسف) ـ

يليه موت بيولوجى حين تكف الغدد عن الإفراز وتتوقف الشحنات الكهربية .. بعد هذا يأتى موت الخلايا ذاته حين تبدأ عملية التحلل .. يحاول هؤلاء بدء التجميد فى المسافة الفاصلة بين الموت الإكلينيكى والموت البيولوجى .. »

ـ « وكيف يتم هذا ؟ »

ـ « لقد جربوا (النتروجين) السائل .. ثم جاء (هارولد ميرمان) من (النمرو) (*) وقال إن (الهليوم) السائل أفضل .. اليابانيون جربوا الأكسجين السائل وأبدوا انبهارهم به .. »

صحت فى دهشة :

ـ « معنى هذا أن التجربة نجحت ؟ »

ـ « بالطبع لا .. نجحت مع الفئران الحية السليمة .. ونجحت ـ فى حالة اليابانيين ـ مع

(*) وحدة الأبحاث الطبية للبحرية الأمريكية ..

اليرقات .. إن اليابانيين (أساهيا) و (أوكى) قد بردا الشرانق حتى – ٣٠° مئوية ثم غمراها فى الأكسجين السائل .. بعد هذا ذوبا الثلج ، فواصلت الحشرات حياتها بشكل طبيعى وخرجت منها الفراشات ..

« (ميرمان) جرّب طريقة أعنف بالهليوم السائل الذى وصل بدرجة حرارة الفئران إلى – ١٩٧° مئوية .. وحين استعادت الفئران حياتها ، فوجئ العالم بأنها تتذكر كل ما تعلمته قبل التجميد .. لقد احتفظت بذاكرتها القديمة .. »

« وفيما بعد جربت د . (أودرى سميث) من المعهد القومى للبحوث الطبية نفس الشىء على الفئران . وعلى الحيوانات المنوية .. »

قلت له فى كياسة :

– « معذرة يا سيدى .. لكنى أجد فى الكلام بعض التناقض .. تارة تقول إنهم فشلوا ، وتارة تقول إنهم نجحوا .. »

– « بالطبع لم يكن النجاح كاملاً .. أولاً هم أجروا تجاربهم على كائنات حية وليست ميتة كما يأملون .. ثانيًا لم تخل الخلايا من أذى واضح .. إن التجميد يكوّن بلورات ثلج داخل الخلايا ، وهذه تحدث عند التذويب أذى لا يمكن وصفه ولا تصديقه ..

« ولهذه الأسباب حاول اليابانيون حقن اليرقة بالجليسرول مع غمرها فيه .. يقولون إن هذا يقلل تكوين البلورات .. »

– « وما الذى أثار هذه القصة الآن ؟ »

– « منظر الجثة يا فتى .. منظر الخلايا .. هذه خلايا كانت مجمدة ثم ذابت ، وجعلتها بلورات الثلج الذائبة تنفجر .. »

ثم نزع عويناته وقال :

ـ « إنهم حمقى .. يبشرون بما هو ضد الطبيعة ذاتها ، فلو ناقشتهم فى هذا لابتسموا فى ثقة وسماحة ، وقالوا لك : (هذا ما كان يقال عن الكهرباء) .. إن الكهرباء واللاسلكى جعلا هؤلاء القوم يقبلون أى شىء مهما كان منافيًا للمنطق .. وهذا يضعك ـ أنت العالم المدقق ـ فى صورة من يرى الشمس فينكرها .. كأنك أحد المتعصبين الحمقى الذين سخروا من (كوبر نيكوس) .. »

عدت أقول له :

ـ « وما رأيك إذن فى الجثة التى شرَّحتها ؟

ـ « أعتقد أن الأمر هكذا .. هذا شخص كان فى حالة إحياء مؤقت وقد تجمد تمامًا ، ثم عاد إلى عالمنا فجأة .. عاد وبذل بعض الجهد فى

صراعه معك .. هذا كان كافيًا كى يذوب تمامًا .. ببساطة انفجرت كل خلاياه وأوعيته الدموية ، ومات فعلاً فى ثوان .. »

ـ « لكنه لم يمت حقًّا قبل التجميد ؟ »

ـ « بالطبع لا .. لا تكن أحمق يا فتى .. الموتى لا يعودون إلى الحياة فى عالمنا هذا .. وهذا شىء يقوله لك العلم والدين معًا .. »

ـ « إذن هناك من يجمد المرضى الميئوس من شفائهم هنا ، ولسبب ما ذابوا قبل الأوان .. »

فتح كفه طويلة الأنامل بما معناه (لا أدرى) ، ثم قال :

ـ « ليس من عملى أن أعطى استنتاجات لا تستند إلى وقائع .. لكن دعنى أقل لك إن سلوك هذا المتوفى الذاهل يتناسب مع انتفاخ خلايا مخه .. لا عجب أنه لم يردَّ عليك ، ولربما

لم يرك أصلاً .. لقد كان يعيش آخر لحظات مخه وقتها .. »

ثم ابتسم للمرة الأولى لهذا اليوم ، وقال :

- « بالمناسبة يوجد سرطان متقدم فى خلايا نخاع هذا الرجل .. سرطان النخاع المتعددَ .. هذا مرض لا يملك أطباء اليوم علاجه .. لكن بعد أعوام .. من يدرى ؟ »

وكانت كلماته ذات معنى واضح ..

هذا الميت كان يعانى مرضًا لا يُرجى منه شفاء ..

٨ ـ إنهم يعودون أحيانًا ..

(أعرف أنها المرة الثالثة .. لكن ماذا أفعل ؟)

على الحائط كانت ورقة علقتها ، وقمت بتثبيتها بالشريط اللاصق ..

وعلى الورقة رسمت ممرات (سافارى) .. الطرقات التى كان العائدون يمشون فيها ليلاً .. إن لدىَ ثلاث روايات ، وشهادة عينية رأيتها بنفسى ..

إن المكان الذى جاء منه هؤلاء القوم يجب أن يكون :

١ ـ سهلاً قريبًا .. إن حالتهم لا تسمح لهم بكثير من المشى ..

ب ـ خفيًا يأتون منه فلا يراهم أحد ، ويدخلونه فلا يراهم أحد ..

ج ـ واسعًا مجهزًا يسمح بوجود ثلاجات أو شىء من هذا القبيل ..

سهل خفى واسع مجهز قريب ..

هذه هى الصفات الرئيسية ، وقد دنونا جدًا من الحلّ .. لم يبق سوى الإلهام .. ولكن أين هو الإلهام ؟

د ـ يجب أن يؤدى إلى القرية أو يكون على اتصال بها .. إن هؤلاء القوم يُشاهدون فى القرية المجاورة منذ ستة أشهر ..

★ ★ ★

فى الحقيقة قمت فى الساعات الأخيرة بعدة جولات فى (سافارى) ، لكن من دون نتيجة ما فى كل مرة .. إن (سافارى) كظهر يدى ..

أعرف كل ثقب فيها ، ومن العسير أن يكون هناك مكان ما لا أعرفه ..

كان هذا فضولاً .. فضولاً طال ، وفى النهاية قلت لنفسى : ما شأنك بكل هذا ؟ لقد كنت دومًا تمقت القصص التى يتدخل فيها البطل فيما لا يعنيه ، وتفضل عليها القصص التى يجد البطل نفسه فيها متورطًا برغم أنفه .. إن تدخل البطل فيما لا يعنيه يجعله بشكل ما مسئولاً عما يحدث له ..

لهذا قررت أن أنسى كل شىء عن العائدين ، وأن أعود لروتين حياتى فى وحدة (سافارى) ..

★ ★ ★

وكان عملى الصباحى مع (برنادت) فى قسم الأطفال ..

قالت لى فى مرح حين رأتنى :

ـ « صباح الخير يا (علاء) .. تبدو فى أسوأ حال .. »

ـ « شكرًا .. هذا لطيف منك .. »

الواقع أننى لم أنم جيدًا .. بماذا يحلم من رأى ما رأيته ؟ طبعًا يحلم ـ « كالعادة ـ بأنه فى قاعة كبيرة محاطًا بأحواض الهليوم السائل التى يتصاعد منها البخار (لا أدرى إن كان هذا صحيحًا علميًا لكنه جميل شكلاً) ، وفجأة تخرج الجثث من الأحواض .. جثث متجمدة بدأ جلدها ينفجر ، وكلها تمدّ يدها نحوه بتلك الطريقة المتصلبة المرتجفة التى رأيناها فى كل أفلام (الزومبى) ..

ثم ماذا ؟ بالطبع يرجع بطل الحلم للوراء فقط ليصطدم بالمزيد منهم ..

حلم تقليدى طبعًا بلا ابتكار .. ولكن بم يحلم إذن ؟ إن الظروف هى التى تصنع الحلم ، والحلم تنفيس نفسى تلقائى لا إرادة لنا فيه ..

نعم .. كنت فى أسوأ حال ، وكان هذا ظاهرًا على وجهى بالتأكيد ..

سألتنى بصورة عابرة وهى تضبط سريان المحلول فى ذراع غلام :

ـ « هل شرحتم الجثة ؟ »

ـ « (جيديون) فعل .. وقد وجد أشياء غريبة حقًا .. »

ـ « مثل ؟ »

ـ « يقول كلامًا لا يريحنى عن (الكرايونيكس) .. »

نظرت لى هنيهة كأنما تهضم ما قلت ، ثم همست :

ـ « (علاء) .. هناك طفل مات بسرطان الدم فى هذا القسم .. لقد قابلته أمس ليلاً ! »

ابتلعت ريقى .. لقد ربطتْ بين الموضوعين بسرعة غير عادية .. قلت لها ضاغطًا على حروف كلماتى :

ـ « هل مات بين يديك ؟ »

ـ « ليس بالضبط .. لقد انتهت نوبتجيتى ، ثم عدت بعد ساعتين فعرفت أنه مات .. أمس قابلته يمشى فى الردهة .. »

ـ « وماذا فعلت ؟ »

هزّت شعرها الأشقر ، ومسحت عينيها بسبابتها وقالت :

ـ « ماذا تريد ؟ لقد فررت منه طبعًا .. فررت كأن الشيطان يطاردنى .. لا أحب كثيرًا أن أمسك به لأرى ذلك المشهد ثانية .. »

ثم نظرت فى عينى ، وقالت :

ـ « (علاء) .. هل حقًا هناك من يمارس (الكرايونيكس) هنا ؟ »

إن الكلمة مألوفة لها .. واضح أننى الجاهل الوحيد فى هذه الوحدة ، الذى لم يسمع هذا المصطلح حتى أمس حين ذكره (جيديون) ..

قلت لها :

ـ « من الواضح أن هناك من يفعل .. السؤال الكبير هو أين ومن ؟ »

همستْ كأنما هى فى عالم آخر :

ـ « أين ومن ؟ »

★ ★ ★

فى المساء كان علىّ أن أعمل فى قسم الأورام من جديد .. إننى أمقت هذا ، لكن من

الواضح أننى سأقضى فيه وقتًا أكثر من اللازم .. إن الطبيب الهندى الذى كان يعاون الأخ (بليتز) قد استقال من (سافارى) ، وعاد إلى (كلكتا) .. هذا فتى شجاع ، لكنه جعلنى أسيرًا هنا لفترة لا بأس بها ، وكانت الأوامر اليومية تصدر من د. (باركر) .. أوامر إدارية لا يمكن أن تناقشها أو تحتج عليها .. (علاء) فى الأورام .. ليكن يا سيدى ..

ساعدت الدكتور الألمانى (يورجين بليتز) على تركيب كورس العلاج الكيميائى لأحد مرضى سرطان (هود جكين) اللمفاوى ، وكان علىّ أن أتوقع أن تفتح أبواب الجحيم على رأسى بعد هذا .. إن علاج السرطان يكون أحيانًا أقسى من السرطان ، ولسوف يبدأ المريض فى القىء والإسهال حتى الصباح ..

قال (يورجين) الذى بدأ يتناسى حقده علىّ فى الأونة الأخيرة :

- « إن هذه الأدوية فعالة ، لكنها تؤذى الخلايا السليمة والمريضة على السواء .. واللعبة الكبرى هنا هى أن تجد الدواء الذكى الذى يجد الخلية المريضة فقط .. قديمًا حاولوا هذا .. قاموا بعزل ذراع مريض عن باقى جسده ، ثم حقنوا الشريان المفصول بخردل النتروجين ، وراحوا يستردون الدمَ عن طريق الوريد .. دورة صناعية دامت - بمنأى عن باقى الجسد - نصف ساعة كاملة .. وكان ذراع المريض يعانى من ورم سرطانى قاتل .. بعد نصف ساعة رأى الأطباء الورم يتآكل ثم يتحلل ويزول .. ! »

راقت لى الفكرة ، فسألته :

ـ « يبدو هذا منطقيًا .. لماذا لا تعالجون كل شىء بالأسلوب ذاته ؟ »

ابتسم ابتسامته اللزجة وقال :

ـ « فكرة غير عملية على الإطلاق .. كيف تعزل سرطان المخ ؟ كيف تعزل الثدى ؟ بل ـ وهذا أسوأ ـ كيف تعزل سرطانًا لمفاويًا ؟ إن الأمل هو فى الأجسام المضادة وحيدة المستعمرة .. هذه الأجسام تشبه الحديد الذى لا ينجذب إلا لمغناطيس واحد هو الورم .. كل واحد من هذه الأجسام المضادة يحمل جزيئًا من العلاج الكيميائى السامّ .. ثم يلتصق بالورم ويدمره .. »

ـ « إذن قد وجدتم الحلّ .. أهنئكم .. »

ـ « ليس بعد .. إن تطوير هذه الأجسام المضادة مشكلة .. ما زال أمامنا الكثير حتى

نصل لعلاج السرطان ، لكننا سنصل .. حتمًا سنصل .. »

رحت أمارس عملى ، وأنا أرمقه فى ركن العنبر ، يدوّن ملاحظاته فى تذاكر المرضى .. بعد قليل انصرف ليدخل مكتبه المجاور للعنبر ..

أنهيت سريان آخر قطرات من المحلول فى ذراع مريض (هود جكين) ، ثم غادرت العنبر لألحق بـ (بليتز) ..

كان أول ما لاحظته هو أنه يجرع شيئًا ما من كوب ، ثم شعر بى فوضع الكوب على المكتب فى شىء من ارتباك . وحاول أن يبدو طبيعيًا ..

غريب هذا ! لا يوجد صنبور ولا زجاجة قريبة .. الكوب لم يكن موجودًا منذ دقائق .. هذا الرجل يخفى مشروبه المفضل فى درج

مكتبه .. فلماذا ؟ هل هو يعاقر الخمر ؟ جائز جدًا .. وهى تهمة مريعة فى (سافارى) تستحق أن يجفل بهذا الشكل .. إنها تساوى عنقه ..

قلت له كى لا يلاحظ أننى لاحظت :

– « كل شىء على ما يُرام .. لقد انتهت جرعة مريض (هود جكين) .. أما مريض سرطان الكلى فحرارته مرتفعة جدًا .. لقد أعطيته بعض الـ .. »

– « جميل .. جميل .. »

ثم نظر إلى ساعته ، وقال وهو يتثاءب :

– « الآن أنت المسئول عن هذا القسم ، أما أنا فسأظفر ببعض النوم .. »

– « ما هو الجميل هنا ؟ مريض سرطان الكلى حرارته .. ليكن .. سأقوم أنا بالعمل كله .. هذا يشعرنى بالقدرة على كل حال ..

وغادر (يورجين) المكان ، فجلست أنا على مقعده خلف المكتب بعد ما خفضت برودة جهاز التكييف .. ، ورحت أتسلى بقراءة بعض أعداد مجلة (شتيرن) كان يطالعها قبلى .. أعنى بالطبع أننى رحت أشاهد الصور ، لأننى لا أفقه من الألمانية حرفًا ..

وبدون أن أعرف لم فعلت ذلك ؛ تحسست أناملى درج المكتب .. الدرج الخاص بـ (بليتز) .. إنه موصد طبعًا .. لا جدوى من المحاولة ..

ثم تسمرت عيناى على الكوب الموضوع على المكتب ..

ثمة بقايا سائل فيه .. سائل شفاف رائق ..

لكنه ليس ماء ..

* * *

وفى الصباح انتهى عملى فى هذا القسم ، وعدت متجهًا إلى غرفتى .

كانت الخامسة والنصف صباحًا ، وقد بدأت أثمل بحق من فرط السهر .. حالة (خفة الدماغ) الشهيرة تتلاعب بى ..

لا بد أننى حين رأيته فى ذلك الضوء الخافت الخادع ، حسبت أننى أحلم .. حسبت أننى نمت على قدمى ..

لكنى رأيته وعرفته ..

الأستاذ (لوجاس) شخصيًا .. مريض السرطان الذى مات منذ .. منذ متى ؟

ها هو ذا يمشى فى الممر أمامى ..

ها هو ذا ينظر لى ..

ها هو ذا يقول بصوت مبحوح معذب :

ـ « افعل شيئًا ! »

★ ★ ★

٩ ـ البحث ..

تصلبت فى مكانى ولم أتكلم ..

بشكل ما لم أكن خائفًا .. إن الرجل صديقى أو كان صديقى .. برغم عقلى المضطرب أعرف يقينًا أن هذه ليست جثة حية .. لا يوجد شىء كهذا .. شبح ؟ ربما .. أنا لم أر أشباحًا كثيرة لكننى أحسبها لا تؤذى ..

وفى نفسى أقسمت أن هذا التجسد مادى تمامًا .. لا يوجد ما يخرق الطبيعة فيه .. هذا كائن كامل يحتل حيزًا من المكان والزمان .. له ظل ويتنفس ويتكلم .. لن أخافه أكثر مما أخاف لصًا مسلحًا ينتظرنى فى زقاق .. وفى هذا الصدد لى أن أطمئن .. أنا أقوى منه بالتأكيد ..

رأيته يبتعد عنى ببطء كأنما لم يقل شيئًا ..

آه ! إنه يتجه إلى ركن الممر حيث يغيب فى المنحنى .. لن أترك هذا يحدث .. سألحق به .. إن ..

هنا سمعت من يقول بصوت عال :

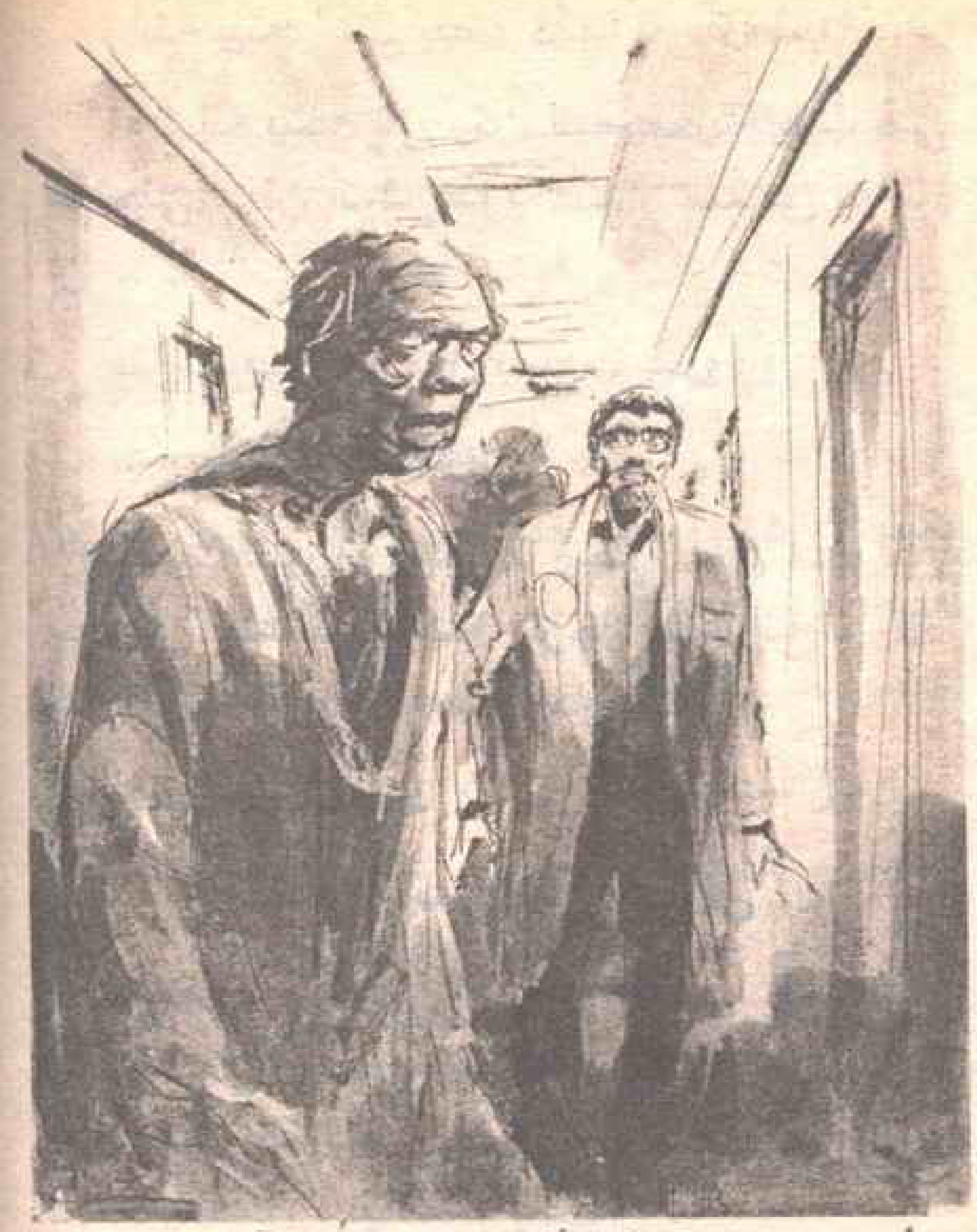
ـ « ابتعد يا دكتور ! »

نظرت للوراء فوجدت رجلى أمن أسودين يصوبان مسدسيهما نحو الرجل المترنح ، وقد بدا عليهما انفلات أعصاب كامل ..

رفعت يدى صائحًا :

ـ « لا تطلقا ! إنه واهن كطفل ! »

لكنهما لم ينويا الإطلاق طبعًا .. لقد ظلّ أحدهما واقفًا مصوبًا سلاحه ، على حين جرى الآخر نحو الغريب ؛ وقبل أن أتكلم وثب عليه فألقاه كالصخرة ليصطدم بالجدار ..



رأيته يبتعد عنى ببطء كأنما لم يقل شيئًا .. آه ! إنه يتجه
إلى ركن الممر حيث يغيب فى المنحنى ..

صحت كالمجنون وأنا أخشى رصاصة طائشة من المخبول المتحمس الثانى .

- « لا تعامله بغلظة ! إنه هش جدًا ! »

لكنه كان قد فعلها .. وسرعان ما بدأت التحولات المريعة تظهر على وجه (لوجاس) .. بدأ يصدر أصوات الـ (أغاااااه !) والـ (فمممف !) إياها ، ثم انفجرت الحويصلات فى وجهه وذراعيه ..

وبعد ثوان انفجرت عيناه فى المحجرين ، فأطلق رجل الأمن صرخة كأنما هو امرأة تلد ، وصاح بالفرنسية :

- « رباه ! أى شيطان هذا ؟! »

وتراجع للوراء وهو يرسم الصليب على صدره ، بينما تهاوى (لوجاس) على الأرض

كدمية (الماريونيت) التى أصيب محركها بنوبة قلبية ..

قلت لرجل الأمن فى غيظ :

- « تبًا لك من أحمق ! كان سيقودنا إلى المكان الذى دخل منه ! »

لكن الرجل راح يرتجف .. يرتجف ويردد عبارات بلغة (البانتو) لم أفهمها .. إن بعض هؤلاء مسيحيون لكنهم خلطوا المسيحية بمعتقدات القبائل فى مزيج غريب .. هكذا فعل (السيخ) فى الهند حين خلطوا الهندوسية بالإسلام ..

تراجعت للوراء ونظرت إلى الحارس الذى مازال يشهر سلاحه :

- « دع هذا حتى لا تقتلنا .. إن غريمكما مات على كل حال .. مات أبشع ميتة يمكنك أن تتصورها .. »

★ ★ ★

إن السرطان قد يكون رحيمًا بالنسبة لما نحن بصدده ..

★ ★ ★

وبالطبع لم أنم هذا الصباح ..

كان هذا من حقى ، لكنى لم أستطع ، وقد جلست جلسة كئيبة مع المدير حكيت فيها تفاصيل هذا اللقاء .. قال لى ناصحًا فى نهايتها :

- « ابتعد عن المتاعب .. هذا ليس عسيرًا .. »

- « إن المتاعب لا تبتعد عنى .. هذا كل شىء .. »

وانتهى الاستجواب فنهضت كاسف البال حائرًا ..

وفى حجرتى رحت أتأمل الرسم الكروكى الذى أعددته من قبل .. وضعت علامة (×)

حمراء حيث قابلت الرجل .. كنت قد وضعت علامة (×) حمراء على كل مكان شوهد فيه أحد هؤلاء القوم ، وأخرى خضراء على كل مكان اختفوا فيه .. والآن يمكننى أن أرى كثافة غير عادية للعلامات الخضراء ما بين قسمى الجراحة والعظام .. بالتحديد عند غرفة الجبس حيث تعالج الكسور ، وهى غرفة قديمة لم يعد أحد يستعملها ..

يمكن أن أزعم أن (لوجاس) كان متجهًا إلى هناك بدوره ، قبل أن يهاجمه رجلا الأمن ..

ماذا يوجد فى هذه الغرفة ؟

★ ★ ★

كان الوقت ظهرًا ، ولم يكن مطلوبًا منى شىء معين .. المفترض أننى نائم الآن بعد سهر البارحة ..

لماذا لا أذهب هناك ؟

مشيت حتى وصلت إلى قسم العظام .. كانت الفوضى ضاربة أطنابها ، والممرضات يصرخن ، والعمال يهرعون هنا وهناك ، وزحام لا بأس به من المرضى و .. و .. واضح أنها من ساعات اليوم العنيفة .. ربما هو حادث أو شىء كهذا ، وقسم الطوارئ يشحن حالاته إلى قسم العظام ..

لم يكن أحد يلاحظنى ، ولا أحد يعبأ بى ..

مددت يدى وفتحت باب الغرفة .. كانت مظلمة إلا من بصيص من نور النهار يتسرب عبر ستار كثيف سميك على النافذة ..

وببساطة ـ كأن هذا من حقى تمامًا ـ دخلت وأغلقت الباب ورائى ..

★ ★ ★

والآن دعنى أصف لك هذه الحجرة لتراها معى ..

إنها ثلاثة أمتار فى أربعة .. يوجد سرير فحص جوار جدارها .. سرير فى حالة يرثى لها طبعًا ، وعليه طبقة كثيفة من الجبس الجافّ .. ثمة حوض غسيل على حامل ثلاثى جوار السرير ، وقد غلف العنكبوت كل هذا بخيوطه اللزجة .. توجد بقايا أرجل وأذرع من الجبس القديم طبعًا .. إنها بقايا ألقيت هنا حين كانت الغرفة تعمل ..

الأرض متسخة مغطاة بطبقة كثيفة من المسحوق الأبيض ، لكن آثار الأقدام الحافية واضحة .. آثار حديثة طبعًا وإلا لغمرها الغبار .. إننى لست مخطئًا إلى هذا الحدّ .. لا أحد يدخل هذه الغرفة حافيًا إلا لو كان .....

ولكن .. إن دخول الغرفة سهل ، لكن كيف يغادرونها ؟

يوجد مخرج .. أنا واثق من وجود مخرج ..

دنوت من النافذة الزجاجية وأزحت الستار المغبرّ .. هذه نافذة لا تفتح بالتأكيد .. ونظرت عبرها فوجدت الفناء الخلفى لـ (سافارى) حيث تقف عربتا إسعاف والسيارة الـ (لاندروفر) ..

أنا فى الطابق الثانى ، ومن العسير أن يفتح أحد العائدين هذه النافذة ليهبط على المواسير ، ثم يتسلل من دون أن يراه رجال الأمن .. يحتاج هذا إلى لياقة غير مسبوقة ..

حسن .. لا نوافذ فى الموضوع ..

* * *

ومن جديد عدت أتأمل الجدار .. هذه الملاءة المتسخة المعلقة كأنها لوحة جدارية تثير ارتيابى .. أزحتها فوجدت ما توقعته ..

إنه مخرج .. لكنه مخرج فريد من نوعه .. إنه باب مصعد قديم واضح أنه قد تم إلغاؤه من زمن .. هذه أشياء وجدت فى فجر وحدة (سافارى) .. كان هناك مصعد ينقل حالات الكسور إلى هذه الحجرة .. ومنذ أعوام يبدو أنهم نسوا كل شىء عن المصعد والغرفة ذاتها .. هناك من علق الملاءة على باب المصعد لينسى الجميع أمره ، ولو أزاح أحدهم الملاءة فلن يجد إلا بابًا برىء المنظر .. هذا مصعد بدائى أقرب إلى سقالة متحركة كالتى يرفع عليها البناءون أدواتهم إلى الطوابق العليا ..

تراه يعمل ؟ بالتأكيد يعمل .. ولكن كيف ؟

فتحت الباب ، ودخلت ..

كان المصعد من الداخل مظلمًا كئيبًا .. لكننى أخرجت القلم الضوئى الذى أحمله فى جيب معطفى دومًا مع قلمى ، والذى أستعمله لفحص حدقات العيون ..

لا مفاتيح .. لا أزرار .. هذا طبيعى .. لقد ألغى المصعد منذ أعوام .. ربما منذ أوائل الثمانينات .. لكنه يعمل بالتأكيد .. أحدهم قد أصلحه ، وراح يستخدمه دون مشاكل ..

أخرجت قلمى ودسسته فى الثقب السفلى حيث ينتظر أن يوجد المفتاح (G) الخاص بالطابق الأرضى .. انتظرت لحظة ، وفجأة بدأ الديناصور العجوز يعمل .. هدير عال ، وخشونة فائقة تنذر بانقطاع الكابلات وسقوط هذا الشىء فى بئر عميقة .. يا لى من أحمق ..

إنه بطىء جدًا .. رباه ! بطىء ..

وشعرت بأننى أختنق

« لا أحد يعرف أننى هنا .. ولو .. »

وتحركت فىّ كل مخاوف « رهب الأماكن المغلقة » ..

« ظللت هنا إلي يوم الدين .. لما .. »

وهو شعور قديم محترم لا يجب أن نخجل منه ..

« شعر بى أحد .. »

★ ★ ★

أخيرًا توقف المصعد ..

شعرت بهذا .. لم يكن توقفًا ناعمًا بالطبع ..

وانتظرت لاهثًا فى الظلام لحظة الفرج العظمى ؛ حين ينفتح هذا الباب الشبيه بباب القبر ..

العرق يغمر جبينى ، وريقى جافٌ تمامًا ..

هيا .. هيا انفتح أيها الأحمق .. افتح لو كنت لا تحب أفعال (الإذعان) العربية .. هيا ..

الحقيقة أن الوقت طال

« كنت أعرف أن هذا سيحدث .. »

أكثر من اللازم ..

« لقد تصرفت بغباء »

وبدأت أتوتر .. دققت الباب بكياسة ، ثم وجدت أن العقل لن يجدى .. لا بد من الهلع .. من الهستيريا .. قليل من الهستيريا مفيد لى ..

أوسعت الباب ضربًا بقبضتى ، ثم رحت أصرخ .. وأركل .. أركل وأصرخ ..

لكن لا حياة لمن تنادى ..

لا أدرى هل هو نقص الهواء أم الذعر فى هذا القبر المظلم ، لكنـى فى النهايـة غبت عن الوجود ..

* * *

١٠ ـ أنت حرّ يا دكتور ..

وحين فتحت عينى ، كنت راقدًا على سرير فحص ، وكـان (بليتز) جالسًا بجوارى علـى مقعد .. والجو بارد كأنما فى القطب الشمالى ..

يجب أن أقـول هنـا إننى مـن اللحظـة الأولى أعرف أن لـ (بليتز) علاقـة بشـىء لا أدرى كنهه ، لكنه مريب .. القارئ قد عرف هذا كذلك ببساطة لأن الوجه الوحيد الغريب فى القصة هو (بليتز) ، لكن بالنسبة لى فى عالم الواقع لم تكن الأمور بهذا الوضوح ..

لكن ارتبـاط (بليتز) الشديد بحادث اختفاء (لوجاس) ، وارتباطه بالحـالات الميئوس من شفائها عمومًا ، بالإضافة إلى كلامه الذى لا ينتهى

عما سيفعله الطب غدًا .. كل هذا جعل صورة وجهه تتراءى لى كلما فكرت فى هذه الأحداث ..

كان أول ما قاله بلهجته المنمقة هو :

ـ « والآن .. ماذا تتوقع أن أصنع بك ؟ »

وصمت قليلاً ثم أردف :

ـ « كان بوسعى أن أتركك حيث أنت ، لكننى لست ذلك القاتل متجمد المشاعر .. إن حياتى كلها محاولة لتمديد احتمال الجسد البشرى .. لجعله أفضل .. وأنت عقبة فى طريقى لكننى لا أستطيع سحقها .. »

قلت له وأنا أحاول النهوض :

ـ « أنت وجدتنى فى المصعد ؟ »

هزَّ رأسه أن نعم .. وقال :

ـ « فى الظلام ومع كل ذعرك لم تجد الزرَّ الذى يفتح الباب .. إن الباب لاينفتح تلقائيًا ، ويبدو

لى أنك حالة متقدمة من رهب الأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا) .. »

سألته ورأسى ينبض كالطبل :

ـ « أين نحن ؟ »

ـ « لسنا فى (سافارى) على كل حال .. »

ثم نهض فصبَّ لنفسه بعض الماء من دورق على منضدة ، وقال :

ـ « أولاً وقبل أن تحاول الفرار أو القيام ببطولات زائفة ؛ لقد قمت بإخفاء باب المصعد .. غطيته بالملاط وطليته كباقى الحجرة .. لن يصدق أحد كلماتك لأنها ببساطة أعقد من اللازم ... أما عن مواضيع تجاربى فهم أحياء يرزقون ، لكن المكان كله يمكن أن يشتعل بإغلاق دائرة كهربية ، وأنا أحملك مسئولية موتهم كاملة

وقتها .. هذا بالطبع لو حاولت أن تثرثر أو تتكلم .. سأنكر كل شيء ولن يصدق أحد حرفًا .. كل ما ستجنيه هو فقد مجموعة من الأبرياء لاذنب لهم .. إن كلامى واضح أو هكذا أظن ، وعسى ألا يكون ضعفى فى الفرنسية مانعًا لفهمك .. »

ثم جرع الماء ، وقال وهو يمسح شفتيه :

- « أنت حرّ يا دكتور (عبد العظيم) .. الباب على يسارك ، وهو يقود إلى دغل صغير .. لو عبرته تجد نفسك فى (سافارى) .. »

★ ★ ★

كان هذا غير متوقع .. كنت أنتظر أن أكون مقيدًا ، وأن أتلقى بعض التهديدات وأسمع بعض تخاريف العظمة .. كلهم يتصرف هكذا ..

لكن الرجل يبدو واثقًا من نفسه تمامًا .. غير متشنج وغير هياب ..

وجعلنى هذا أبغى البقاء لأعرف أكثر ..

سألته وأنا أريح رأسى - رأسى المسكين - إلى الجدار :

- « هل حقًا أنت واثق من أنهم لن يتهموك بشىء ؟ »

- « لا شىء يربط بينى وبين هذا المكان سوى كلماتك .. الأمر هين بعد كل هذا .. لكن البديل الوحيد المتاح لى هو قتلك ، وأنا ببساطة لن أفعل .. »

راحت عيناى تجوبان المكان ..

لم يكن معملاً واسعًا تملؤه أحواض (الهليوم) السائل ، ولم تكن هناك جثث معلقة بالأسلاك على طريقة فيلم (غيبوبة) .. فى الواقع لم تكن سوى حجرة ضيقة بها خزانة زجاجية ملأى بالكتب ، ومقعدان وسرير فحص .. ذلك الذى

أرقد عليه ، وكانت الجدران مشققة متآكلة بفعل الرطوبة ..

على اليسار يوجد الباب الذى وصفه لى ، وعلى اليمين يوجد باب آخر موصد أعتقد أنه الذى يقود إلى المعمل ..

سألته :

ـ « هل تسمح لى ؟ أظن أنك أحمق .. كان بوسعك إخراجى من المصعد وتركى حيث أنا .. كيف كنت سأعرف دورك فى القصة ؟ »

وخطر لى فى الوقت ذاته أنه لا يعرف ما أعرفه .. وكيف له ذلك ؟ ربما يحسبنى مجرد فضولى وجد فتحة المصعد بشكل ما ..

قال وهو يجوب الغرفة مفكرًا :

ـ « أنا لست أحمق .. لقد عرفت نتائج التشريح من ذلك الكورى .. مساعد (جيديون) .. عرفت

أنك فهمت موضوع التجميد .. بعد هذا قالت موظفة الحاسب الآلى الأمريكية إنك طلبت بيانًا بعدد من ماتوا ولم يذهبوا إلى المشرحة .. وقال ذلك الممرض الكاميرونى إنك زرت القرية لتسأل .. وبعد هذا كله أجدك فى مصعدى السرى ثم أفترض أنك تجهل كل شىء ؟

أنا لست بالحمق الذى تظنه .. »

ثم تذكر شيئًا فأضاف وهو ينظر فى عينى :

ـ « ثم إنك سرقت كوبى .. الكوب الذى شربت منه أمس .. هل تحسب أننى لم أكتشف هذا ؟ الأمر واضح . أنت تعرف (الكرايونيكس) .. وأنت تشك فى أمرى باعتبارى مدبِّر هذا كله .. »

ثم أشار للباب من جديد وقال :

ـ « أكرر أنك حرّ يا د . (عبد العظيم) .. يمكنك الرحيل الآن .. لولا بقية من تهذيب لطردتك طردًا .. »

★ ★ ★

اتجهت مترنحًا إلى الباب وفتحته ..

رأيت أشجار الدغل وقد بدأت تتشح بلون الغروب المهيب .. الأرجوانى الذى خالطه الأزرق ، أو الأزرق الذى خالطه الأرجوانى ..

توقعت سماع صوت الطلقة قبل أن تخترق ضلوعى .. يقولون إنك تسمعها بعد الإصابة لا قبلها .. لا أذكر بالضبط ..

توقعت هبوط كتلة الخشب الثقيلة على رأسى ، لكن هذا لم يحدث ..

ونظرت إلى الوراء فوجدت الرجل جالسًا ينتظر ....

إنه صادق .. حقًا بوسعى أن أرحل ، ولا خداع فى الموضوع .

أما وقد اطمأننت إلى حريتى وحياتى ، تحرك فى أعماقى ذلك الثعبان الخبيث الشرس : الفضول ..

أريد أن أعرف أكثر ....

أريد أن أفهم ....

★ ★ ★

استدرت نحوه وقلت فى كياسة :

ـ « هل يمكننى أن أبقى أكثر ؟ »

نظر لى طويلاً كأنما يفكر ، ثم قال دون أن يغير جلسته :

ـ « يمكنك .. لكن ما قلته لم يتغير .. »

ـ « أين هم بالضبط ؟ »

نهض من مقعده ، واتجه إلى الباب الآخر على اليمين وقال :

- « اتبعنى .. »

★ ★ ★

وكان المشهد مخيبًا للآمال كما توقعت ..

هل تعرف أقرب تاجر أسماك زينة قرب دارك ؟ هل دخلت عنده ؟ هل رأيت أحواض الزجاج المتراصة فوق بعضها على جانبى المحل ، وكل حوض تخرج وتدخل منه عشرات الخراطيم لتزيد الحياة تعقيدًا ، وتصيبك بالانهيار العصبى ؟

كان هذا هو المشهد بالضبط ، لكن الزجاج كان مغلفًا بطبقات من ثلج رقيق ، وفى كل حوض كان جسد آدمى كامل يغفو بلا تنفس .. لا فقاقيع تخرج أو تدخل .. وكانت حالة الأجساد ممتازة ..



وفى كل حوض كان جسد آدمى كامل يغفو بلا تنفس .. لا فقاقيع تخرج أو تدخل ..

أما الهدير الصاخب المستمر فواضح أنه يجىء من مولّد كهرباء كبير يعمل بالجازولين .. ما كان ليجد كهرباء فى هذه البقعة المنعزلة ..

رحت أمشى بين الأحواض منبهرًا مذهولاً .. حقًا كانت بعض الأجساد مزودة بإبر تحقن أشياء فى العروق ، ويبدو أن سائل التبريد كان يمرّ بدورة معينة ربما للخلاص من الفضلات ..

سألته إذ وقف عند مدخل القاعة يراقب انفعالاتى :

- « هل تستعمل (النتروجين) ؟ »

- « بل الأكسجين السائل مثل اليابانيين .. إنه أرخص ثمنًا .. »

وقفت أمام أحد الأحواض أرمق وجهًا شاخص البصر .. وجه شاب فى العشرين من عمره .. وسألت متوجسًا :

- « هل .. هل هم موتى ؟ أعنى .. هل جمدتهم وهم موتى ؟ »

قال فى هدوء وقد عقد ذراعيه على صدره :

- « لا .. لا أحد يقدر على إعادة الحياة للموتى .. فقط فى أفلام الرعب يفعلون هذا .. لقد جمدت هؤلاء وهم أحياء ، وحياتهم تدنو من نهايتها بسبب مرض عضال .. لقد كان الدرن مرضًا عضالاً فى بداية القرن ، واليوم هو السرطان والإيدز ، ربما يجىء مرض آخر بعد ما ننتهى من السرطان وسواه .. »

ثم إنه قال لى فى رزانة :

- « سأعرض عليك اتفاقًا ما .. اتفاق (جنتلمان) .. أولاً سأحكى لك كل شىء عن تجربتى هذه .. بعدها سأسألك سؤالاً واحدًا ،

ولن تكون مرغمًا على الإجابة بالقبول .. لست مرغمًا على أى شىء ..

« فقط دعنى أتكلم .. وبعدها قل ما تريد قوله .. »

كنت أتوقع عالمًا مجنونًا يسيل اللعاب من شدقيه كما فى أفلام حرف (ب) الرخيصة .. ربما له مساعد أحدب .. وبالتأكيد سيحاول قتلى ، ونتصارع وينتهى الأمر باحتراق المعمل وهو فيه ، وتحترق أوراقه كلها بينما أفرُّ أنا .. هذه هى النهاية الطبيعية .

أما والرجل يكلمنى بهذا الاتزان ، فإننى لم أملك إلا أن أسمح له بأن يحكى كل شىء ..

ولى حكى كل شىء ..

* * *

١١ـ الحقيقة كلها ..

قال (يورجين بليتز) .

ـ « طيلة حياتى كنت منبهرًا بتقدم العلم المطرد ، وقد اعتنقت مفهوم الإنسان السوبرمان الذى يطوِّر نفسه باستمرار ويتحاشى عيوبه القديمة .. »

إن للفكرة طابعًا (نيتشويًا) نازيًّا لا شك فيه ، ومن العسير ألا يتهمنى أحد اليوم بالنازية ، خاصة واليهود تحت كل حجر ، لكننى لم أعبأ بهذا كثيرًا .. كنت واثقًا من أن مسيرة الإنسان تخطو به إلى الكمال ..

كنت أطالع الأدب العالمى فأرتجف .. تصوَّر أن (تشيكوف) مات بالدرن .. هذا العقل العبقرى

مات فى سن صغيرة نسبيًا بداء كانت بعض أقراص من عقار (أ . ن . هـ) مع حقن (ستربتومايسين) كفيلة بالقضاء عليه ، لكنه عاش فى زمن كان الدرن هو سرطان العصر ، وما كان الأطباء يملكون له إلا النصائح بالرحيل إلى مكان دافئ يستشفى فيه ..

أدباء عظام ماتوا بالتيفود أو النزلات الشعبية ، واليوم يموت عظماء كثيرون بالسرطان ..

كنت أقول لنفسى : لو أبقينا (تشيكوف) حيًا حتى اكتشاف (الستربتومايسين) ، ولو أبقينا مدام (كورى) حية حتى اكتشاف علاج السرطان ؛ فمن يقدر ما كانا سيقدمانه لنا فى عالم اليوم ؟

« كانت هذه بداية اهتمامى بعلوم (الكرايونيكس) .. »

* * *

« لماذا الكاميرون بالذات ؟ »

« لنقل إننى ـ فى أواخر السبعينات ـ وجدت تحت يدى ثروة هائلة .. وخطر لى أن أبحث عن ركن بعيد فى العالم أمارس فيه تجاربى ، بعيدًا عن سطوة العلم (الأمريكى) و(السوفييتى) ..

«وكان لى قريب يعمل فى إرسالية هنا .. فى (أنجاوانديرى) بالذات .. لهذا جئت هنا بغرض الإقامة الدائمة ..

«وتمكنت من بناء هذا الكوخ المتواضع وسط الأحراش ، وقمت بتزويده بكل ما يلزمنى للاستمرار فى أبحاثى .. أبحاثى التى بدأتها مع الحشرات ثم مررت بالفئران والأرانب .. وأخيرًا عملت على الحيوانات المنوية والخلايا الطلائية التى وجدتها فى بصاقى ..

«بعد أعوام قررت أن أبدأ أولى تجاربى على البشر ..

« فى البداية تمكنت من الحصول على صبى يموت بداء سرطان الدم فى أحد مستشفيات الإرسالية .. كنت أعمل هناك ، واستطعت أن أخدِّره ثم رشوت ممرضين كى يجلباه إلى معملى .. وفى الصباح قيل لأهله إن مريضهم مات ، وإننا شرحناه ، وأعدنا لهم جسدًا كان التعرف على ملامحه عسيرًا إن لم يكن مستحيلاً ..

« ورقد الصبى فى حوض السائل وبدأت التجميد ..

« بعد هذا تكرر السيناريو ذاته مع ثلاثة أو أربعة مرضى ..

« افتتحت وحدة (سافارى) فى (أنجاوانديرى) ، وهكذا جربت حظى وتمكنت من الالتحاق بها ..

إن لى صلات فى المركز الرئيسى لـ (سافارى) ، وقد استطعت الوصول إليها فى وقت متأخر نسبيًا .. إن لى عامًا لا أكثر هنا ، لكنى قمت بأشياء عظيمة ..

«كانت مشكلتى الأولى هى نقل الجثث ، وهذه يمكن حلها بالمال .. إن الممرضين المرتشين موجودون فى كل مكان ..

« المشكلة الثانية كانت الوصول بالجثث إلى هذا المعمل .. وقد وجدت أن المصعد القديم يمكن إعادة تشغيله سرًا .. إنه يقود إلى قبو مهجور كان هو قاعة استقبال (سافارى) منذ أعوام .. ومن هناك يمكن عبور مساحة قصيرة ـ حوالى عشرة أمتار ـ لتصل إلى الأحراش ، وبعد عشر دقائق تصل إلى المعمل ذاته ..

« هذا هو الطريق الذى قطعته أنت .. بالطبع اضطررت لتخديرك كى لا تفيق فجأة وتملأ الدنيا

صراخًا .. لكنى من البداية كنت أعرف أننى سأطلق سراحك .. ما كنت لأقتل كائنًا حيًا أنا الذى أفنى عمره محاولاً إبقاء الكائنات حية ..

« لكنى كنت أريد منك أن تنظر فى عينى ، وأن تسمع بوضوح ما قلته لك : لو تسرب حرف مما قلناه الآن ، لا ختفيت أنا عن العيون ، ولتلاشى هذا المكان بمن فيه وسط النيران ..

« كان كل شىء يمضى كما رسمت له ، حتى حدثت مشكلة العائدين .. »

★ ★ ★

« المشكلة هى أن مواضيع تجاربى يحتفظون بذاكرتهم كاملة برغم التجميد ..

« لقد جمَّد الباحثون فى (النمرو) الفئران لفترات طويلة ، لكنها عادت إلى الحياة وهى تذكر كل ما كانت تعرفه من قبل ..

« (ميرمان) وصف هذه الخبرة بدقة ، وهو ما وجدته أنا صحيحًا .. يجب أن أقول لك إننى لم أعرف شيئًا عن هؤلاء العائدين حتى وقت قريب جدًّا .. قد يبدو هذا غريبًا لكنه حقيقى ..

« ثمة خلل حدث فى نظام التبريد هنا ، وقد استطاع بعض هؤلاء أن يذوبوا .. نهضوا من الأحواض وانتزعوا الخراطيم الواصلة إليهم ، ثم بدءوا أكثر الجولات غرابة وإرعابًا ..

إن من ينتمون إلى القرية منهم عادوا إليها ، ومشوا بين الأكواخ مسببين ذعرًا عامًا .. كانوا يتذكرون المكان وإن عجزوا عن التفاعل معه ..

« أما من ينتمون لـ (سافارى) ، فكانوا يجولون فى ردهاتها .. إنهم ـ بشكل ما ـ يذكرون شيئًا عن رحلة المصعد ، ويضغطون على الأزرار بأناملهم المتجمدة .. ثم يخرجون

من غرفة الجبس ، ويجولون .. ربما يراهم الحراس وربما لا يرونهم .. لكن أحدًا لايستوقفهم .. فى النهاية كانوا يعودون من الطريق ذاته ، وكنت أدخل معملى لأجدهم فى حالة تحلل تامّ على الأرض .. إن للذوبان أسلوبه الخاص ، ومن دون هذا الأسلوب ينفجر الشخص فعليًا ولا يستطيع أحد إنقاذه ..

« أنت رأيت والتحمت مع أحد هؤلاء .. بل مع اثنين منهم ، ورأيت كيف يتحلل فى دقائق .. ولعل معركتك معه عجلت بالنتيجة ..

«لقد حاولت أن أحلّ هذه المشكلة ، ولعلى نجحت فى هذا .. لكنى فقدت خمسة أو ستة بشكل مؤسف .. إن هؤلاء الحمقى مصرون على الإفاقة المبكرة غير المدروسة ، وسرعان ما يغادر الواحد منهم حوضه الزجاجى ، ويمشى آخر ميل فى حياته قبل أن يهلك تمامًا .. »

هنا تدخلت سائلاً :

- « هل تعنى أن كل واحد من هؤلاء العائدين لم يظهر للعيان سوى مرة .. وكانت هى الأخيرة دائمًا ؟ »

- « للأسف .. نعم .. لقد دفنت كثيرين فى الغابة ، وبعدها وجدت الخلل أو أحسبنى وجدته .. لن يفيق آخرون إلا حين أحدد أنا ذلك .. »

* * *

كنا جالسين - كصديقين - فى تلك الغرفة التى رأيتها أول ما رأيت ، وكان الليل قد انتصف بينما هو مازال يحكى قصته فى انفعال .. لقد شرب أكوابًا كثيرة من الماء ، وقدّم لى بعض البسكويت مع القهوة لأتبلغ .. لابد أن غيابى صار ملحوظًا فى (سافارى) ..

سألته وأنا ألوك البسكويت الردىء :

- « أما زلت تأمل فى أن يفيق هؤلاء يومًا ما ، ليجدوا الطب قد وجد علاجًا لأمراضهم ؟ »

حكَّ أنفه وداعب شاربه الرفيع السمج ، وقال :

- « أنا لا آمل .. أنا متأكد .. »

- « لكنك لن تعيش فترة كافية كى تعتنى بهؤلاء المتجمدين .. »

ابتسم فى مرارة ، وقال :

- « لهذا لابد من توريث السرّ .. لابد من كوادر شابة تتولى المهمة من بعدى .. إن الأمر أشبه بالنيران فى معبد (دلفى) .. لابد من عذارى يعنين بها كى لا تنطفئ أبدًا ، والعذراء التى تتزوج تعلم عذراء أخرى كيف تقوم بالمهمة .. لقد كان الموت هو جزاء العذراء التى تنطفئ منها النار .. »

قلت وقد بدأت أفهم :

- « أعتقد أن العرض الذى أردت تقديمه قد صار واضحًا لى .. »

- « بالفعل .. لابد أن هناك حكمة خفية لكونك قد عرفت السر .. ولعل هذه الحكمة هى أن تتولى العناية بنيران (دلفى) من بعدى ! »

* * *



١٢ - إنهم يعودون أحيانًا ..

(عنوان جديد مبتكر)

- « هل تتوقع منى أن أتولى هذه المهمة الثقيلة ؟ أسرق المرضى وأجمدهم ، وأتأكد من أن نظام الأكسجين السائل لا تشوبه شائبة ؟ »

ابتسم فى ثقة ، وقال :

- « أتوقع هذا بالضبط .. لقد كلمتك بالمنطق فكلمنى بالمنطق .. »

وقفت أرتجف من فرط البرد ، وقلت وأنا أنظر لجهاز التكييف :

- « هل يمكن تقليل عمل هذا الشىء قليلاً ؟ »

- « لا .. »

قالها فى هدوء وثبات ، ثم استرخى فى مقعده ينتظر ما سأقول .. فقلت :

- إن الأمر كله مناف للطبيعة .. طبيعة الأشياء أن يمرض المرء ويموت .. وأنا أجد فيما تقول خرقًا للطبيعة .. »

- « ضيق أفق واضح .. لو كانت طبيعة الأشياء أن يمرض المرء ويموت ، لما كان هناك داع لاختراع الإنسولين والمضادات الحيوية .. نحن من يحدد طبيعة الأشياء وليست الأشياء ذاتها .. »

- « أشعر بشىء مريب دينيًا فى كل هذا .. لا أفهم وجه الخطأ لأننى لست متبحرًا فى الدين ، لكنى أشمَ فى التجربة كلها نوعًا من التجديف .. »

- « ولم ؟ نحن لم نتحدث عن الموتى .. نحن نتحدث عن المرضى .. »

لم أكن فى حالة عقلية تسمح بالجدل الطويل .. ربما فيما بعد ، وبعد ساعات من النوم العميق وطعام شهى ، أكون فى حالة تسمح بالرفض ، مع ذكر مبرراتى كاملة جلية .. أما الآن فأنا أرفض التجربة وأشمئز منها وكفى ..

لماذا نمقُت (البورص) ونشمئز منه برغم كونه كائنًا لطيفًا مسالمًا لا يؤذى على الإطلاق ؟ إن هذه التجربة (بورص) معنوى كبير لا أتحمل الدنو منه ، ولست مطالبًا بإعطاء تفسيرات لاشمئزازى هذا ..

لهذا قلت له فى إصرار :

ـ « آسف يا دكتور (بليتز) .. لا أجد نفسى مناسبًا لاستكمال تجاربك هذه .. يجب أن تجد شخصًا آخر .. »

وظللنا صامتين بعض الوقت نصغى لهدير المولِّد الكهربى .. حتى قرر أن يسألنى .

ـ « ماذا تنوى بالضبط ؟ هل ستبلغ الإدارة فى (سافارى) بأمرى ؟ »

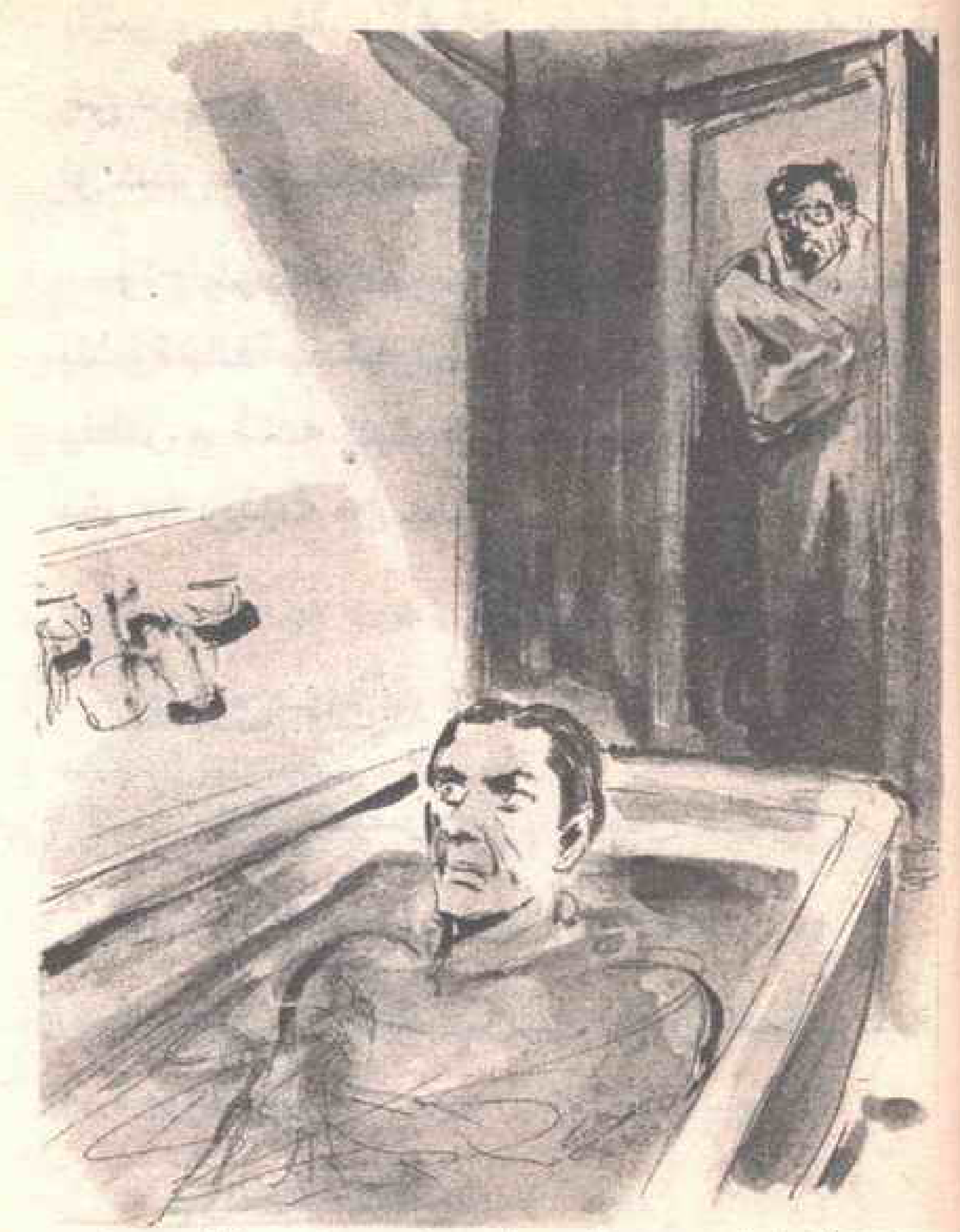
قلت متحاشيًا نظراته :

ـ « كنت أتمنى أن أجيب إجابة أمينة ، لكنى لم أستقر على رأى بعد .. أنا بحاجة إلى بعض النوم والتفكير على مهل .. ربما بعد يوم أو يومين أستقر على قرار ما .. »

قال (بليتز) وهو يضع ساقًا على ساق :

ـ « لسوف تساعدنى .. أعرف هذا .. إن المنطق السليم لا يُهزم بسهولة ، مهما بدا غريبًا مريرًا فى اللحظات الأولى .. »

ثم نظر فى ساعته ، وتنهد :



كان قد غطس حتى العنق فى (بانيو) ملىء بالماء .. ماء غريب يبدو أن كثافته تختلف عن الماء العادى ..

ـ « منتصف الليل .. هذا موعد حمامِى المعتاد .. لقد تأخرت كثيرًا بسبب استضافتى لك .. »

ونهض لينتزع ثيابه دون تحرّج .. ثم أشار لى كى أتبعه ..

نهضت بدورى متوقعًا بشكل ما ما سأراه ..

دخل إلى القاعة الواسعة حيث الأحواض العملاقة ، ثم فتح بابًا صغيرًا على يسار القاعة ودلف منه ..

لم يدعنى إلى الدخول فى هذه الغرفة بالذات ، لكنى دلفت ووقفت على الباب .. ورأيت مشهدًا غريبًا بعض الشىء :

كان قد غطس حتى العنق فى (بانيو) ملىء بالماء .. ماء غريب يبدو أن كثافته تختلف عن الماء العادى ، فهو لم يكن رقراقًا يتناثر أو يبلل

الأشياء .. وكانت الغرفة باردة تمامًا .. باردة إلى درجة الموت .. باردة كـ (فريزر) ثلاجتك لو كنت متحمسًا ودفنت رأسك فيه .

راح يلهث وهو مغمض العينين كمن يشعر بنشوة بالغة بعد طول حرمان .. ومن حين لآخر يغطس برأسه كليًّا تحت مستوى السائل ، ثم يخرجه ويلهث من جديد ..

★ ★ ★

بعد دقائق قلت له :

- « هذا (جليسرول) .. أليس كذلك ؟ »

قال وهو مغمض العينين :

- « بلى .. لابد من أن أغمر جسدى فيه مرة يوميًا .. »

- « وتشربه كذلك .. »

قلتها وقد تذكرت كوب الماء الموضوع على مكتبه فى (سافارى) .. كان شكله غريبًا من البداية ، وخطر لى أن هذا ليس ماء .. لو كان ماء فلماذا ارتبك الرجل كثيرًا حين رأيته يشرب ؟ ليس شرب الماء مخجلاً إلى هذا الحدّ .. ثم إن كثافة السائل فى الكوب لا توحِى بالماء أبدًا ..

ببساطة حملت الكوب بما فيه من بقايا ، وهرعت إلى المعمل أستشير النرويجى (بيونارد) الذى كان ساهرًا هناك ، بعدما انصرفت (هيلجا) الشمطاء .. وكان تعليقه ببساطة هو أن هذه المادة (جليسرول) .. لا أكثر ولا أقل ..

ولماذا ؟ لماذا يشرب المرء (الجليسرول) بهذا النهم والإفراط ؟

وسألنى (بليتز) دون أن يفتح عينيه :

ـ « أخالك تفهم كل شىء الآن ؟ »

ـ « نعم .. »

★ ★ ★

إنه ذو طابع كلاسى فى كل شىء .. فى ثيابه .. فى كلماته .. فى شعره اللامع الغارق فى البريانتين والذى يفرقه من منتصف رأسه .. فى شاربه الرفيع المنمق كخط باللون الأسود على شفته العليا ..

★ ★ ★

وهذه نقطة أخرى تميز (بليتز) .. إنه لا يطيق اليهود ولا الإنجليز ولا الفرنسيين .. يبدو أن النزعة العرقية (الآرية) لم تفارق الألمان بعد ؛ بعد نصف قرن من وفاة (هتلر) ..

★ ★ ★

« كل السود يتشابهون فى نظرى ، ولن أميز أحدهم من الآخرين ولو بعد مائة عام .. »

★ ★ ★

دائمًا يحيط به البرد .. كأنما نحن فى القطب الشمالى ..

★ ★ ★

سألته وأنا أرتجف لا أدرى من البرد أم الرهبة :

ـ « منذ متى ؟ »

ـ « ١٩٣٣ .. بالضبط .. »

كان يجب أن أتوقع هذا أيضًا .. (ألمانيا) فى عصر صعود النازى .. (ألمانيا) التى تحمل مقتًا جنونيًا (للإنجليز) و (الفرنسيين) بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى .. (ألمانيا)

حيث تنمو أفكار النازية العنصرية بسرعة جنونية ، وكما قال (هتلر) عن الزنوج : «من العسير علىَّ أن أبتلع فكرة أن تأتى بقرد من على شجرة ، وتضعه فى بذلة ، وتجعله يعمل محاميًا .. بينما الآلاف من أبناء الجنس الأسمى عاطلون بلا عمل(*) .. »

إن (بليتز) يبدو بالضبط مستوفيًا لشروط الأناقة حسب قواعد الثلاثينات .. ولغته عتيقة الطراز بعض الشىء ..

لو كان قد مرّ بالتجربة وهو فى الثلاثين من عمره ، فمعنى هذا أن عمره الآن مائة عام .. مائة عام لكنه يبدو فى الأربعين ..

قال كأنما يسمع أفكارى :

(*) بالنص تقريبًا من كتاب (كفاحى)

- « أخى كان عالم فيزياء (ألمانيًا) مرموقًا .. البروفسور (شنيتزل بليتز) .. هو من وضع قواعد التبريد وأسسه .. فى هذا الوقت أصبت بالدرن الرئوى ، وكان من العسير إنقاذى ، لهذا وافقت على أن أجتاز أول تجربة تبريد تتم على كائن بشرى كامل .. ولم تكن تجربة أليمة أو قاسية ..

« وفى أواخر السبعينات ، بعدما صار علاج الدرن سهلاً متاحًا لكل طبيب ؛ بدأ أخى عملية تذويبى .. كنا فى (ألمانيا) التى صارت غربية الآن .. وكان معمله فى مكان ما فى قبو داره .. الخلاصة أننى عدت إلى العلم بعد سبات طال نحو خمسة وأربعين عامًا ..

« إن المزية الأولى للغياب عن الزمن فترة طويلة هى أنك تجد أنك صرت ثريًا .. لهذه

الأسباب يكون ثراء مصاصى الدماء فى القصص فاحشًا .. العقارات يزداد ثمنها ، والمعادن الثمينة تغدو باهظة ..

« وهكذا ـ بعد ما شفيت من الدرن ـ حزمت كل ما أملك ، واخترت هذه البقعة من العالم بالذات .. وقررت أن أواصل ما بدأه أخى ..

« إننى أختلف عن كل عالم خاض هذه التجربة فى أننى أعرف عيوبها بدقة .. إن التجميد يتلف الخلايا والتذويب يتلفها أكثر .. لابد من أن تغمر حياتك بالكامل فى (الجليسرول) .. لابد من أن تشرب لترًا على الأقل منه يوميًا ، ولابد أن تغمر نفسك كل يوم ..

« ثم إن الخلايا لا تغفر لك ما مرت به من ساعات عصيبة .. وكل خلية عوملت بقسوة لا تنسى ذلك بسهولة ..

« طريقة تمرد الخلايا هى الانقسام المجنون ، وإلغاء أو تدمير الجينات المثبطة للأورام .. بعبارة أخرى : السرطان .. »

دوّت الكلمة فى الحجرة فأجفلت ..

ونظرت له محاولاً الفهم .. فقال باسمًا :

ـ « إننى أحاول تأجيل ما يحدث فى جسدى ، لكنه مصرّ على الحدوث .. لهذا أعيش فى جو شبيه بجو القطب الشمالى ، وأتعاطى المزيد من (الجليسرول) .. إلا أن السرطان اللمفاوى أسرع منى بكثير .. »

ورفع ذراعه خارج الحوض ، فاستطعت أن أرى الانتفاخات تحت إبطه .. كريات شريرة المنظر كأنها حبّات ليمون صغيرة ..

★ ★ ★

وقفت على الباب ، ودسست يدىّ فى جيب معطفى :

- « أنت تريد أن أواصل تجميدك لفترة أخرى ؟ »

- « نعم .. »

وأردف وهو يغسل وجهه بالجليسرول :

- « يومًا ما - بعد خمسين عامًا - سيكون العلم قد توصل إلى طريقة ما .. طريقة للقضاء على السرطان اللمفاوى ، وعندها أذوب أنا وآخذ جرعتى الأولى .. هذا ليس سخيفًا أكثر مما كان علاج الدرن سخيفًا فى ثلاثينات هذا القرن .. »

نظرت إليه .. إلى الغرفة .. إلى المعمل الخارجى حيث أقفاص الزجاج والسائل المجمّد .. (كرايونيكس) .. كل هذا يثير ذعرى ..

- « أنا آسف يا دكتور (بليتز) .. »

واستدرت مغادرًا المكان ..

مغادرًا المعمل ..

مغادرًا الكوخ فى الأحراش ..



١٣ ـ أنت تحلم يا بنى ..

فرغ البروفسور (بارتيلييه) من سماع قصتى الغريبة ، فقال وهو يصبّ لنفسه المزيد من القهوة :

ـ « هل أنت متأكد من أنك لم تصب بهلوسة مرضية ؟ »

ـ « لست واثقًا من شىء يا سيدى .. »

ـ « ولماذا انتظرت يومين كى تخبرنى ؟ »

قلت وأنا أصب لنفسى بعض القهوة دون إذنه :

ـ « كنت مبلبل الفكر يا سيدى .. خطر لى فى لحظات بذاتها أن أترك الرجل يمارس ما يقوم به ..

وفى لحظات أخرى كنت أصطدم بقوانين الطبيعة ونواميسها .. إلحاح ما هو (عادى) و (طبيعى) و (معتاد) .. وكان هذا يجعلنى أقشعر من هول الفكرة .. »

عقد كفيه تحت ذقنه وقال مفكرًا :

ـ « ربما أنا فى موقف أفضل منك قليلاً .. إننى أفكر إداريًّا لا فلسفيًا .. ومن الناحية الإدارية لا حق لهذا الرجل أن يسرق المرضى من وحدتى وأن يخدرهم ويجمدهم دون موافقة مكتوبة موقعة منهم .. إنه بهذا يحرمهم فرصة العلاج الصحيح الموثوق به من أجل علاج تجريبى افتراضى .. »

ـ « لا يوجد علاج فعال لأمراضهم بعد .. »

ـ « لكنه الشىء الوحيد الذى يقرّه العلم المعروف حاليًا ، وما عدا هذا وهم .. هناك

مليون علاج للإيدز الآن ، لكن المراجع الطبية لاتقر سوى مجموعة (الرتروفير) و (الديدانوسين) وخلافه .. ليس من حقك أن تحرم مريضًا فرصته فى تعاطى (الرتروفير) لمجرد أنك تعتقد أن لديك ما هو أفضل .. »

ورفع سماعة الهاتف ، وقال :

ـ « هل يمكنك أن تقودنا إلى هذا المكان ؟ »

ـ « بالطبع يا سيدى .. إن هى إلا بضع خطوات وسط الدغل الذى يقع خلف (سافارى) .. »

بدأ يطلب رقمًا ما .. ثم تذكر شيئًا فقال وهو يسدّ السماعة :

ـ « بالمناسبة .. إن (يورجين بليتز) مختف منذ البارحة .. لا أثر له فى (سافارى) كلها .. »

★ ★ ★

ومشيت مع (بارتلييه) و (باركر) ورجال الأمن الستة ؛ وسط الأشجار المتفحمة وبقايا الخشب المحترق ..

قال (بارتلييه) وهو يتأمل المساحة الخالية :

ـ « لا يوجد شىء يا علاء .. »

وجفف عرقه هو الذى لم يعتد كل هذا المشى ، وقال لاهثًا :

ـ « هفف ! على الأقل كنا سنجد بعض العظام المحترقة .. لوح زجاج هنا أو هناك .. لابد من أثر ما .. »

قلت وأنا أنقب فى الرماد بحذائى :

ـ « هو قال إنه سيحرق كل شىء لو تكلمت أنا .. »

قال د . (باركر) فى نفاد صبر :

ـ « العظام لا تحترق يا بنى .. كل سفاح يعرف هذه الحقيقة .. »

ـ « إن الرجل يعرف أشياء كثيرة ولديه ترسانة كيميائية كاملة هنا .. »

ـ « ربما استطاع تذويب كل أثر له فى الحمض قبل أن يحرق الكوخ كله .. »

ـ « عسير هذا يا بنى .. لسنا فى قصة خيال علمى هنا .. نحن نتعامل مع الحقائق الملموسة .. »

وضع (بارتلييه) كفه المكتنزة على كتفى وقال :

ـ « لابد من قبول الحقيقة يا بنى .. أنت تحلم .. كنت تحلم لا أكثر .. »

نظرت فى عينيه وسألته بثبات :

ـ « هل أنت واثق من هذا يا سيدى ؟ »

كان يبتعد الآن مع رجاله متجهًا نحو وحدة (سافارى) ، وسمعته يقول دون أن يلتفت للوراء :

ـ « أحب أن أعتقد هذا يا بنى ! »

★ ★ ★

وفى مطار (لوساكا) انتهى السائح الألمانى المتأنق من إجراءات الجمرك ، وابتسم فى تهذيب لموظف الجمارك وهو يغلق حقائبه ..

ـ « غريب هذا الرجل .. » ـ همس الموظف لزميله ـ « .. هل لاحظت جلده ؟ إنه شبيه بجلد التمساح ، ويبدو أنه مصاب بداء عضال .. »

ـ « هذه الأشياء تحدث .. »

والأغرب أن الرجل جرى كالمجنون إلى الحمام ..

تأكد من أن أحدًا لا يراقبه ، ثم أخرج قارورة صغيرة من جيبه جرع ما فيها فى نهم .. وتنهد منتشيًا ..

يجب أن يجد مكانًا باردًا ..

يجب أن يجد حوضًا يملؤه بالجليسرول ..

يجب أن يجد من يقبل معاونته ..

يجب ..

إنها مشاكله على كل حال وليست مشاكلنا لحسن الحظ .. إن لدينا مشاكل من نوع مختلف تمامًا هنا فى وحدة (سافارى) .

د . علاء عبد العظيم

أنجاوانديرى

★ ★ ★



سافاري

مغامرات طبيب شاب يحاول أن يظل حيا وكي يظل طبيبا...

إنهم يعودون أحياناً

أنت تعرف هؤلاء الذين يهيمون في الردهات ليلاً .. الذين يستحيل أن ترى وجوههم .. الذين يمشون في الظلال .. الذين لايستديرون للوراء أبدا .. الذين يختفون فجأة ويعودون من حيث جاءوا !



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر ... ٢٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم
الرجل الذي لم يكن